كلية : الآداب جامعة الأنبار

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: ماجستير

أستاذ المادة : د. احمد عبدالعزيز

اسم المادة بالغة العربية : دراسات أدبية

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Literary studies

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: المعارك الأدبية

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية : Literary battles

محتوى المحاضرة الأولى

المعارك الأدبية / دكتوراه أدب

١- إطلالة على كتاب المعارك الأدبية / أنور الجندي

٢- تصفح كتاب معارك أدبية / محمد مندور

٣- تتبع أصول المعارك الأدبية وتطورها وصولا إلى ما استقرت عليه في عصر النهضة وإلى يومنا هذا

٤- الثمار التي جنتها الساحة الأدبية من المعارك الأدبية وما الذي أضافته للنقد فضلا عن الأدب

٥- أهم أسباب خفوت هذا النوع من الخصومة الأدبية في عصرنا الحاضر

٦- أهم المعارك الأدبية وأعنفها

٧- حقيقة العداوة بين الأدباء

٨- على أي شيء قامت المعارك

٩- أشهر المعارك الأدبية هي التي بين المحافظين والمجددين

١٠- طه حسين مفجر المعارك الأدبية في العصر الحديث ، كيف ولماذا؟

١١- وأشياء أخرى...

ولعل فيما يلي ما يصلح مفتاحا للمحاضرة المذكورة

الخصومة في الأدب فيض الخاطر/ احمد امين/ ج٣

كانت الخصومة بين الأدباء دائمًا نعمة على الأدب وإن كانت نقمة أحيانًا على الأدباء أنفسهم.

فالخصومة ـــ أول الأمر ـــ في كثير من الأحيان هي التي تنتج الأديب وتهيج مشاعره، وتطلق لسانه، وفي تاريخ الأدباء الشيء الكثير من ذلك، فقديمًا كان الشاعر العربي يهجو القبيلة ويعيرها ويجسم مثالبها ويقلب حسناتها سيئات، فتتلفت يمنة ويسرة تنظر من يدافع عنها، ويصد كيد عدوها، فتفعل هذه اللفتة في المستعد المتهيئ فعل السحر، فإذا للقبيلة من يروض نفسه على القول، ويعدها للنضال ويطلق لسانه بالقول، وإذا هو شاعر، ولولا هذا الهجاء وهذه الخصومة لكان إنسانًا كسائر الناس لا شاعرًا كسائر الشعراء، وحديثًا سمعنا أن «عبد الله نديم» أطلق لسانه بالقول رجل دعاه ليعلم أولاده ثم أكل عليه أجره، فأخذ يعمل لسانه في هجوه فإذا هو هجاء، وإذا هو أديب، وإذا هو كاتب وشاعر.

ثم الخصومة هي التي أورثتنا بابًا كبيرًا من أبواب الأدب هو باب الهجاء، فلولا الخصومة ما كانت لنا نقائض جرير والفرزدق ونقائض جرير والأخطل، ولا كانت أهاجي بشار وأبي نواس وابن الرومي وغيرهم من الهجائين، وكثير ما هم، ولحرمنا ما أبدعوا في هجائهم من صور فنية هي غاية في الروعة والإتقان، تثير في النفس الهزء والسخرية حينًا، والضحك حينًا، والإعجاب من مصورها حينًا، ولو فقدت هذه الصور لكانت كارثة على الأدب ولفقد ركنًا كبيرًا من مقوماته.

ثم هذه الروايات الكثيرة في الأدب الغربي التي وضعت لنقد كاتب والهزء به وبآرائه، والتي وضعت لنقد فكرة والسخرية بها وبواضعيها ومؤيديها — كل هذه ما كانت تكون لولا الخصومة الأدبية، وكلها ثروة كبيرة من ثروة الأدب لا غنى عنها، ولا حياة له بدونها.

وبعد هذا كله فما النقد؟ أليس هو خصومة، شريفة أحيانًا وغير شريفة أحيانًا؟ إن كان النقد في قليل من أوقاته مدحًا وتقريظًا فهو في كثير من أحيانه عيب وتجريح.

وليس يشك شاك في نعمة النقد على الأدب، فهو الذي بخصومته يهاجم الأدباء في شدة وعنف فيبين أغاليطهم، ويوضح ضعفهم، ويظهر عيوبهم، فإذا هم حذرون يجيدون، خوف النقد، ويحاولون أن يتبرءوا من العيوب، خوف النقد، وينشدون الكمال، خوف النقد، فإذا خرج نتاجهم كاملًا أو قريبًا من الكمال فالفضل في ذلك للنقد.

وفي كل عصر تنشأ خصومة حادة عنيفة بين رجال الأدب من أنصار القديم وأنصار الجديد يتجادلون ويتسابون، وجدالهم وسبابهم أدب، وينقسم الناس إلى معسكرين: أنصار المجددين وأنصار المحافظين، ويحمل كل فريق أقلامهم فيجيدون ويمتعون، فيكسب الأدب من هذه المعارك مكسبًا مزدوجًا، مكسبًا من ناحية ما يقال في هذه المعارك من هجاء وتعنيف وسب وخصام، ومكسبًا من ناحية ما يكسبه المجددون — غالبًا — من توجيه الأدب وجهة جديدة، وإدخال عناصر فيه جديدة، ولولا ذلك لظل هيكل الأدب كهيكل الأهرام تمر عليها الدهور والأعوام وهي هي في شكلها ومادتها، ولكان أدبنا اليوم هو الأدب الجاهلي، ولكان أدب الغرب اليوم هو أدب القرون الوسطى، فلولا ثورة المجددين والخصومة بين الأدباء لما تقدم الأدب خطوة، ولظل على حالته كما تركه الأولون ... هذا في إجمال نعمة الخصومة على الأدب.

•••

ثم إن الخصومات بين الأدباء هي من جنس الخصومات بين ذوي المركز الواحد أو أهل الصنعة الواحدة.

هي من جنس الخصام بين الضرائر، فالضرة تخاصم الضرة؛ لأن كلتيهما تتنازع قلب الزوج، وتريد أن يكون لها السلطان عليه كاملًا، وهي من جنس الخصام بين الزوجة والحماة؛ لأن الحماة تدل بأمومتها وكبر سنها، والزوجة تدل بجمالها وشبابها وغير ذلك.

وهي من جنس الخصومة بين ذوي الصنعة الواحدة، فالنجار قل أن يحب النجار، والحداد قل أن يحب الحداد، والتاجر في نوع من السلع قل أن يحب التاجر في هذا النوع، وكلما قرب الشبه اشتد النزاع، فالنجار في حي من الأحياء أشد كراهية للنجار في حيه من النجار في غير حيه، وتاجر الغلال أشد كراهية لتاجر الغلال منه لتاجر القطن، والسبب في ذلك تسابقهم إلى اكتساب «الزبائن»، فكلٌّ يريد أن يستولي على السوق، وينفرد بالمكاسب،

ويستبد بحسن السمعة والجاه، فإذا شعر بأن هناك من يزاحمه في هذا انتقصه وكرهه وعمل على إخماد أنفاسه، ولذلك كانت كراهية التاجر العظيم للتاجر العظيم أشد من كراهيته للتاجر الصغير؛ لأنه كالآمن من ناحيته، المطمئن إلى أنه لا يبلغ شأوه.

فالخصومة بين الأدباء من هذا الصنف، ولذلك قل أن تجد خصومة بين أديب وعالم أو أديب وموسيقي؛ لأن ميدان السباق بينهما مختلف، إنما يخاصم الأديبُ الأديبَ؛ لأنهما من واد واحد، ويريد كلٌّ أن يكون له السوق وحده، فإذا شعر من أحد أنه يزاحمه في ميدانه خاصمه وهجاه، وقلل من شأنه وشأن أدبه، وفعل الآخر مثله، فكانت النقائض والمهاجاة ونحو ذلك، وعلى قياس ما سبق كلما كانت درجة الأدباء متقاربة كانت الخصومة بينهم أشد، والمهاجاة أعنف، وقد يتصافى الأديبان ظاهرًا ويتخاصمان باطنًا، فتكون الخصومة دفينة تنتظر عود الثقاب ليشعلها، وقد يمر زمن طويل قبل أن يشتعل هذا العود، وكلما زاد أحد الأدباء حظوة عند القراء أو أخرج كتابًا أقبل عليه الناس، ازداد خصومه غيرة فراحوا يقللون من شأن نتاجه، ويتمحلون الأسباب في انتقاصه، وقد تتكون حول كلٍّ أنصارٌ وحول كلٍّ خصومٌ فيكون النزاع بين جماعات لا بين أفراد.

ولكن من الحق أن نقول: إن الغيرة ليست كل شيء في الموضوع، فقد تكون تربية الأدباء وثقافتهم سببًا في الخصومة بينهم، هذا أديب نشأ نشأة عربية خالصة، ولم يقرأ إلا لشعراء العرب، ولم يطلع إلا على الكتب العربية، فعنده أن الأدب الغربي تافه ثقيل الظل، وخير مثال يحتذى هو أسلوب الجاحظ أو أسلوب البديع أو شعر المتنبي أو أبي تمام، وهذا أديب أخذ حظه من أدب الغرب، ومزج بين الثقافتين وفضل الأدب الغربي على الأدب العربي، وصار المثل الأعلى له أن يحاكي شكسبير أو لامارتين أو جوته، فهو يريد أن يطعِّم الأدب العربي بخير ما في الغربي، ويريد أن يجدد في بحور الشعر وفي موضوعاته وفي ميادينه، فتنشأ الخصومة العنيفة، وهي في الواقع خصومة بين مدرستين ونزاع بين مذهبين؛ هذا يتعصب للقديم ولا يريد أن يتحول عنه أنملة، ويريد أن يتبع عمود الشعر كما كانوا يعبرون، وهذا ثائر لا يرضى عن القديم إلا أن يمزجه بجديد، وقد كانت هذه الخصومة في كل عصر تقريبًا، عاب الناس على أبي تمام تجديده ونصره قوم، وهاجم العقاد والمازني شوقيًّا وحافظًا لهذه النزعة بعينها ونصرهما آخرون، وسيصبح الحديث قديمًا ويعيبه جيل المستقبل ويريدون جديدًا، وهكذا سنة الله في كل شيء حتى في الأدب.

وسبب آخر في الخصومة كثيرًا ما يحدث، وهو الخصومة بين شيوخ الأدب وشباب الأدب، وهي خصومة — لا شك — واقعة، غاية الأمر أن المسألة ليست بالسن، فقد يكون شيخًا وهو من أدباء الشباب، وقد يكون شابًّا وهو من أدباء الشيوخ؛ لأن المسألة ليست تقدير عمر، إنما هي نزعة، والنزعة إلى التجديد قد يشترك فيها شيوخ وشبان، والنزعة إلى المحافظة قد يشترك فيها شيوخ وشبان.

والخصومة بين الشيوخ والشبان ترجع إلى عواملَ مختلفةٍ: منها: هذا الذي ذكرنا من اختلاف النزعات، ومنها: أن الشبان قد يكرهون من الشيوخ استيلاءهم على السوق وكثرة الزبائن فينفسون عليهم ذلك ويريدون أن يهدموهم ليحلوا محلهم، ويدافع الشيوخ عن مراكزهم فتكون المعركة مروعة تختلف فيها الأسلحة وآلات القتال، وقد يكون السبب أن الشاب إن كان ناشئًا في الأدب رأى من وسائل شهرته أن ينازل شيخًا، فإن ظفر به فقد فاز فوزًا عظيمًا؛ إذ غلب عظيمًا، وإن لم يظفر به فليست هزيمة منكرة، ويكفيه فخرًا أنه ناوشه، فهو كاسب على كل حال.

وبعد، فكل الناس يتخاصمون، تاجر يخاصم تاجرًا، وصانع يخاصم صانعًا، ورب أسرة يخاصم رب أسرة، وأمة تخاصم أمة وتقاتلها، ولكن الأدب هو الذي يظفر بتخليد خصومته، فقد ذهبت كل الخصومات في العهد الأموي

وبقيت خصومة جرير والفرزدق، وذهبت خصومات الناس في العصر العباسي وبقيت خصومة الخوارزمي والبديع، وخصومة المتنبي وأعدائه، وهكذا.

وكم تَسَابَّ الناسُ وذهبَ سبابُهم، أما سباب الأدباء فباق خالد، وهو طُرفة، وهو إبداع، وهو يثير التبسم ويستخرج الضحك أو الإعجاب، وسبب ذلك أن الأديب طويل اللسان، وقلمه أطول من لسانه، وهو ماهر فنان يستطيع أن يصوغ سبابه في قالب فني يكسبه الخلود، أما سائر الناس فمساكين، إما قصار اللسان، وإما طواله، ولكن ليست لهم القدرة الفنية

الرافعي والعقاد أعنف المعارك الأدبية في القرن العشرين

كانت حياة (الرافعي) سلسلة من المعارك، فما يكاد ينتهي من معركة إلا ليبدأ في معركة جديدة، لكن يتفق النقاد والأدباء على أن معركته مع (عباس العقاد) كانت من أعنف المعارك التي خاضها الرافعي في حياته، بل تعد أعنف معركة في ميدان الأدب بوجه عام، ذلك لأن العقاد كان -آنذاك- له شهرته المدوية وتاريخه المعروف في الدفاع عن الرموز الإسلامية، والثقافة الإسلامية الأصيلة، كما كان له في مجال الشعر قصائد ودواوين ومواقف وآراء لا يستهان بها.

وإنْ شئت قل: كان (العقاد) قد بلغ أعلى مراتب المجد والشهرة لدى جماهير القراء!

ولقد كان (الرافعي) رفيع الذوق فعلاً لا ترضيه كتابات الأدباء فيقول: (إن الأدب -يا أبا رية- منحط انحطاطاً غريباً، فأنا في هذه الأيام أقرأ كتاب (زهر الآداب) للدكتور زكي مبارك ويباهي في مقدمته بتصحيحه وما لقيه في سبيل التصحيح، فإذا فيه غلطات تدل على جهل هذا الدكتور وأنه في النهاية من الغباوة.(

وعن رأيه في عصره، يقول: (ينبغي يا أبا رية أن تعلم أني غير مبال بأدب هذا الزمن ولا بأدبائه، فلا يعنيني أن يكتبوا عن شوقي أو غيره، لأن النفاق غالب عليهم، وجمهور الأمة لا يفقه شيئاً، ولو أُلحق بي منصب كبير لكتبوا عني ما لم يكتب عن أحد.(

الخلفية التاريخية للمعركة!

وقيل: إن معارك الرافعي والعقاد كانت لها خلفية تاريخية تمتد إلى سنة ١٩١١ حينما كان العقاد يكتب في مجلة (البيان) وكان الرافعي محررها الأول وصاحب الرأي في نشر واختصار وحذف ما يشاء من الموضوعات ومن بين هذه الموضوعات ما كان يكتبه العقاد، ومن هنا بدأ بينه وبين العقاد خلاف امتد إلى مفاهيم في الشعر والنثر. وبدأ هذا الخلاف على صفحات (المؤيد) الصادر في ١٦ مايو ١٩١٤ حيث نجد للعقاد موضوعاً عنوانه (فائدة من أفكوهة) يدور حول اضطراب القياس عند الرافعي، حينما كتب عن جهاز النطق لدى الإنسان والحيوان. وأخذ العقاد على الرافعي تناقضه بين قوله بصدور اللغة في الحيوان عن الإحساس وبين كونه يتعلم حرفاً أو أحرفاً من لغة الناس.. ثم يستدرك الرافعي فيكتب في هامشه: أما الحيوان المروض المأخوذ بالعناية والتعليم والتلقين فقد يقتبس جملة من حروف اللغة التي يتعلم بها. وبذلك تأتى لبعض الألمانيين أن ينطق كلبه بألفاظ خالصة من اللغة الألمانية ولكنها في الجملة من حاجات الكلب الطبيعية كالأكل والشرب فلا تخرج عن معنى الإحساس أيضاً.

ويعلّق العقاد في مقالته بقوله: (إن مثل هذا القياس أفكوهة فلم يكن من سبيل أمام الرافعي إلا أن يطنب فيذكر لغة الحيوان الطبيعية الخالدة ولغة الهمج وموقف الحروف التي ينطقونها والتي لا ينطقونها.(

وينهي العقاد مقالته بأن الرافعي منشئ مكين يحس اضطراب القياس لديه ويعمل القلم ولا يعمل الرأي، لأنه لا يستطيع أن يصنع غير ذلك، وإن كتاب الرافعي (تاريخ آداب العرب) في نظره كتاب أدب لا تاريخ أدب، لأن البحث في هذا الفن يتطلب من المنطق ما يتطلبه الرافعي نفسه ولا يجده في استعداده.

احتدام الصراع على أشده!

وينقد العقاد أدب الرافعي في كتابه (الديوان) فيقول في الهجوم عليه: (مصطفى أفندي الرافعي رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء. وكثيراً ما يخطئون السباد وطالما نفعه التطوع وأبلغه كل أدبه أو جله؛ إذ يدعي الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجور دعواه وينفق إلحافه عند من ليس يكرثهم أن يخدعوه به.. وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعي فحق علينا أن نُفهمه خطر مركبه وأن قدميه أسلس مقاداً من رأسه لعله يبدل المطبة ويصلح الشكيمة!(

ثم يصفه العقاد بأنه من أدباء الجيل الماضي ويهاجمه قائلاً: هذا رجل لا يستحي أن يسمي نفسه على غلاف رسالته بنابغة كُتّاب العربية وزهرة شعرائها. ثم يهاجمه بقوة قائلاً: (إيه يا خفافيش الأدب: أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة، لا هوادة بعد اليوم، السوط في اليد.. وجلودكم لمثل هذا السوط قد خُلقت وسنفرغ لكم أيها الثقلان!(

وتشتعل نيران الخصومة بين العقاد والرافعي بسبب الصراع على صداقة الزعيم (سعد زغلول)، فالأول هو كاتب الأمة الذي أحبه سعد واحترمه، والثاني له مكانته عند سعد أيضاً.. أمراً جعله يقول عن كتابه (إعجاز القرآن) مقرظاً بعبارة: كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم.

وتتأجج الخصومة أكثر وأكثر حين يعلن العقاد بأن هذه الكلمة التي يتشدق بها الرافعي ويفتخر لم تصدر عن سعد زغلول وإنما هو خالقها ومزوّرها.. ليصدّر بها كتابه حتى يروج عند الشعب.

وهنا جنّ جنون الرافعي، فخاض (معركته الخفية) ضد العقاد وهي عبارة عن سلسلة من المقالات السامة أو الحارقة التي نشرها -دون توقيع- في مجلة (العصور) تحت عنوان (على السفود). يقول في رسائله: (أما إغفال الاسم فهو الآن عين الحكمة لا خوفاً من العقاد، ولا مبالاة به، ولكن بمن هو فوقه، فإغفال الاسم يفتح لهؤلاء الرؤساء باب التخلص لأنهم على كل ذوي أدب وضمير، ثم نحن لا نريد المباهاة بكتاب، ولكن نريد إظهار الحقيقة، وفي إغفال الاسم قوة كبيرة لهذه الحقيقة ما دام الكتاب متيناً.(

ويقول إنه سيضع مقدمة في كتابه -على السفود- بقلم العقاد نفسه، وهي جمل كتبها في مقالاته بمجلة كوكب الشرق (أجراها الله على قلمه لأضربه بها!(

)العقاد) جبّار الكتابة!

وقد كان الهدف من هذه الحملة العنيفة– كما يقول الرافعي: (لا ننسى أن العقاد الآن في رأي نفسه ورأي كثيرين هو جبّار الكتابة، فنحن نريد أن نضع أنف هذا الجبار في الأرض مقدار ساعتين على الأقل، لأنه لم يتجرأ عليه أحد حتى الآن، والذين كتبوا عنه لم ينالوا منه نيلاً، وطه حسين لم يكد يمسّه مرة حتى هرب وأخذ ينافق له و(يتملّقه.((

وقد وُجّهت للسفود عبارات نقد كثيرة، وكان الأستاذ (أبو رية) أول من كتب للرافعي في ذلك، فيقول: هذه المقالات -على ما فيها من نقد أدبي لا يستطيع غير الرافعي أن يأتي به- تحمل بعض عبارات شديدة كان يجمل بمثل قلم الرافعي أن لا يجري بها. وكان –رحمه الله– قد اقتنع بما رأينا، ووعد بأن يحذف هذه العبارات عندما يعيد طبع هذه المقالات، وكان الرافعي قد طلب إلى (أبو رية) أن يبين رأيه فيها من قبل.

الحقيقة بين السر والعلانية!

وهدأت الخصومة بين الطرفين فترة لتبدأ من جديد بعد صدور ديوان (وحي الأربعين) للعقاد، ولكن الرافعي كان قد

فارق صولجانه في جريدة (البلاغ) فاستطاع العقاد عن طريق البلاغ أن يحمل عليه حملة عنيفة تحدث بها الثقلان، وسارت بها الركبان، و... وكان مما قاله العقاد آنذاك: (مصطفى صادق الرافعي رجل عامي من فرعه إلى قدمه أو من قدمه إلى فرعه، يظن كما يظن كل عامي أن المناقشة هي أن يغلِب، وأن علامة الغَلَب أن يظل يتكلم ويتكلم)! إلى أن يقول مخاطباً إياه: لا يا هذا عندي ما يشغلني عن ضغينة نفسك الصغيرة فاذهب إلى عالم الأشباح.. الذي ألقيت بك فيه منذ سنوات!

ولعل خصومة العقاد مع مصطفى صادق الرافعي، كانت في مجال الأدب، وكان الرافعي فيها عنيفاً لدِد الخصومة، بعيد المدى في الخصومة والهجاء، غير أنه ما كاد يموت الرافعي حتى نشر (الزيات) حديثاً كان قد جرى بينه وبين الرافعي، تناولا فيه الرأي في العقاد، قال الرافعي: (أما العقاد فإني أكرهه وأحترمه، أكرهه لأنه شديد الاعتداد بنفسه قليل الإنصاف لغيره، ولعله أعلم الناس بمكاني من الأدب، ولكنه ينعى عليّ قوة البيان فيتجاهلني حتى لا أجري معه في عنان.(

وقد أجاب العقاد على هذا الاتهام فقال: (كنتُ أعلم أن الرافعي يقول عني أحياناً غير ما يكتب، روى ذلك محمد السباعي والأستاذ البرقوقي، وهذا يوافق ما رواه الزيات. وقد حرص الرافعي على كتمان هذه الشهادة، فلِمَ هذا الاختلاف بين السر والجهر، أو بين القول الخاص والقول العام، وهذا هو أيضاً موضع الاختلاف بين خطتي في الخصومة الأدبية والخطة التي كان يؤثرها الرافعي وبعض الأدباء، فأنا أقول الرأي بلهجة، وأقوله بلهجة أخرى، هذا قصارى ما أستبيح من الفرق بين الرضا والغضب، والصداقة والخصومة، أما الرأي في لبابه فلا يتغير ولا يتناقض.. إنني كتبت عن الرافعي مرات أن له أسلوباً جزلاً، وأن له صفحات من بلاغة الإنشاء تسلكه في الطبقة الأولى من كتاب العربية المنشئين، وقلتُ أنا لا أنكر عليه فلسفة البحث وصحة المنطق ودقة القياس. وهبنا توافقنا على المودة، ولم نتفرق في الخصومة، فهل كنت أستطيع أن أسيغ القضايا المنطقية التي كان يستكثر منها ويمعِن في الاتكاء عليها، فأنا قد شهدتُ له بالبلاغة الإنشائية وأنكرتُ عليه الفلسفة المنطقية لأنني أستطيع أن أسلكه مع الجاحظ وعبد الحميد، ولا أستطيع أن أسلكه مع كانْت وهيوم، وابن سينا.(

)المرأة) التي أشعلت الصراع!

وإذا كان كثير من الأدباء والنقاد قد أجمعوا على أن الرافعي خسر معركته مع العقاد، إلا أن الرافعي حقق انتصارات عديدة في معاركه مع الشعراء أمثال: خليل مطران، والكاشف، وصبري، ونسيم، وإمام العبد، وشكيب أرسلان، وغيرهم.

لكن هناك سبباً آخر، وراء احتدام الصراع بين (الرافعي) و(العقاد). هذا السبب يدور حول الأديبة والكاتبة (ميّ زيادة) الفتاة اللبنانية الرقيقة المهذبة.

وتشتعل نيران الخصومة بين الأديبين الكبيرين بسبب ميّ، وتمتد إلى أقصى مراميها.

وكما هو معلوم- أن الرافعي كان واحداً من المتدلهين بحب (ميّ) بل كان بينهما حريق من الحب -على حد تعبير الرافعي- وكان أحد رواد صالونها الثقافي الذي كان يلتقي فيه أقطاب الفكر والأدب أمثال: إسماعيل صبري، وطه حسين، وخليل مطران، وأحمد حسن الزيات، ولطفي السيد، وأنطون الجُميّل.. وغيرهم.

وإذا كان هناك عدد كبير من الشعراء والأدباء الذين تدلّهوا بحب مي زيادة.. فإنه لم يشتعل قلب أديب من الأدباء بحب (ميّ) كما اشتعل قلب مصطفى صادق الرافعي، وقد كتب إليها الرافعي مجموعة كبيرة من رسائله، وردت عليه ذات مرة بقولها: (... سأدعوكَ أبي وأمي متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر، وسأدعوك قومي وعشيرتي، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دوماً بالمحبين، وسأدعوك أخي وصديقي، أنا التي لا أخ لها ولا صديق، وسأطلعك

على ضعفي واحتياجي إلى المعونة أنا التي تتخيل فيك قوة الأبطال ومناعة الصناديد.(...
وكتبت أيضاً تقول له: (... سأستعيد ذكرك متكلماً في خلوتي لأسمع منك حكاية همومك وأطماعك وآمالك، حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد، وسأتسمع إلى جميع الأصوات لعلي أعثر فيها على لهجة صوتك، وأشرح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك، وسأبتسم في المرآة ابتسامتك في حضورك، سأتحول عن نفسي لأفكر فيك، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك.(..
في ذات الوقت، كانت (ميّ) تطوي بين جوانحها شوقاً وإعجاباً وإجلالاً كبيراً للعقاد! وهذا مما أثار حفيظة الرافعي ضد صاحبه، وكظم في نفسه غيظاً لا يحتمل، وغضباً لا يطاق، خصوصاً عندما كان يجدها عنده، ويراها شغوفة بكلامه وآرائه!..
لكن الذي جعل قلب الرافعي يتقطع، وعقله يغلي كالمرجل، وكاد يفقده صوابه، عندما علم بحكاية الرسالة التي أرسلتها (ميّ) للعقاد من روما سنة ١٩٢٥ مرفقاً بها مقالها في مناجاة ينابيع فروندیزي بروما، ثم جواب العقاد عليها بقصيدته المعروفة والتي مطلعها:
أنت في روما وفي مصر أنا
بعدت شقتنا لولا النجاء
لكننا لا نستطيع أن نجزم في كون هذا الشغف قد وصل إلى حد الغرام الجدي، وإلا لكانت العلاقة بينهما قد تطورت إلى الزواج! ولقد تضجّر الرافعي كثيراً، واشتاط غيظاً أكثر وأكثر، عندما سمع عن غيرة (مي) على العقاد، تلك الغيرة التي فعلت فعلها في نفس (ميّ) عندما علمت بعلاقة العقاد بسارة، فقصدت إلى جريدة البلاغ ودخلت مكتبه، وهناك دار بينهما عتاب صامت ختمته دمعة انحدرت من عيني (مي!(
هذا في الوقت الذي أرسل الرافعي دموعه لميّ زيادة كالسحاب! ورفضت أن تتزوجه عندما طلب الزواج منها، لأنها كانت لا تؤمن بالقيد الحديدي للرجل.. وقالت له: (يا مصطفى.. من حقك أن تحب كما تريد، ودعني أن أحب كما أشاء!(...
وتركت قلب (الرافعي) يتحطم، وروحه تتناثر كالنسيم في يد الرياح!...
كما جعلت (العقاد) يكتب لنا أروع إبداعاته العاطفية على الإطلاق.. وهي القصة الشهيرة (سارة !)

معارك محمود محمد شاكر الأدبية وأثرها على الحركة الثقافية في مصر Article I.

كانت المعارك والخصومات في الأدب العربي قديمةً جدًا، ولعل بدايتها كانت في المنافرات والمفاخرات التي وقعت في العصر الجاهلي، ونمكن ان نقول بان النقائض كانت صورةً من صور الصراع والمعارك الأدبية، ومنها تلك الأشعار التي نظمها الشعراء المشركون في هجاء الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله، والردود التي نظمها الشعراء المسلمون. صارت المعارك النقدية في أدبنا العربي المعاصر قطاعا حيا من قطاعات حياتنا الفكرية، له خُطورَته وأهميته في مجالات النثر والشعر واللغة العربية ومفاهيم الثقافة. نشأ في مصر تياران في الأدب هما تيار المحافظة وتيار التجديد، وقد تأثر الفكر والأدب والنقد بهما، وبدأت المعارك الأدبية والفكرية والسياسية بين كل من أصحاب هذين المدرستين.

دعا المحافظون إلى حماية اللغة العربية القديمة الفصحى، ودعا أصحاب التجديد الى التغريب، وجعلوا الثقافة العربية متأثرة بالثقافة وصارع المحافظون ضد هذه الدعوات وأقاموا المعارك الأدبية من أجل الدفاع عن .اليونانية، ودعوا إلى الكتابة العربية بالحروف اللاتينية اللغة العربية واعطاء الفضْل للغة العربية على الحضارة الغربية. ولقد حملت الصحافة لواء النقد وأفسحت له المجال وأتاحت الفرصة للقراء لمتابعة المعارك وموالاتها. ومن أهم المعارك الأدبية التي وقعت في عالم العرب في العصر الجديد معارك في اللغة العامية واللغة العربية الفصحى، وقد تواترت المعارك حول هذه القضية فترات. ومعاركٌ في مفهوم الادب والنقد والشعر. وكان محمود شاكر باحثا له منهج خاص في فهم النص وعلاجها وإدراك مراميه وعلاقاته الخفية، واستنباط مفاهيمه وافكاره البعيدة. ومؤلفاتُه كانت أوضحَ ادلة على قدرته .المعرفية وعلى وصفه باحثا الذي يملك الرؤية الناضجة والأداة الماهرة والمنهج المتميز

ولنجد اسم محمود محمد شاكر في كتاب "المعارك الأدبية" للأستاذ أنور الجندي في أربع معارك اثنتين منها في مواجهة الدكتور طه حسين وفى كتابه "مع المتنبي". والثالثة كانت بعنوان مذهبان "في الادب" وكانت تلك بين أنصار الرافعي وأنصار العقاد. واما الرابعة فقد تهدى .فيها لعضو بارز في المجمع اللغوي

وكان الأستاذ شاكر معروفا لمعركتين ضخمتين اللتين كانتا من أبرز معالم حياته الأدبية والفكرية، (وهناك بعض من المعارك ما يمكن ان نسميه بمعارك صغيرة او محاور فرعية للصراع) الاولي معركته كانت مع طه حسين والثاني مع لويس عوض. وقد بدأت هاتين المعركتين عظيمتين بسبب شاعرين من أكبر الشعراء العربية، المتنبي وأبو العلاء المعري. وشارك فيهما عدد كثير من الادباء والكتاب المعاصرين، واما في الاولي مثل سعيد الأفغاني ومصفى صادق الرافعي وعبد الوهاب عزام وعباس محمود العقاد بطريق مباشر وغير مباشرة، وفى الثاني من طرف لويس عوض محمد مندور، ومحمد عودة ومجلة "روز اليوسف اليسارية" وكتاب من "الاهرام" و"الجمهورية"، وسامي داود، ومحي الدين محمد وغابي شكري وغيرهم، ومن طرف الأستاذ شاكر مجلتي "الرسالة" و"الثقافة" وكتابهما من أمثال عبده .بدوي، وعباس حضر، محمد جلال كشك وعامر بحيري وغيرهم

.....

إن المعارك الأدبية التي خاضها محمود شاكر كانت صراعا بين حضارتين وليست مجرد سجال بين كاتبين او أكثر في قضية أدبية او فكرية تنتهي بالفراغ من كتابتهم. وليس من المستغرب ان يقف الفريق الموالي للغرب من وراء طه حسين ولويس عوض وان تقف الامة المسلمة .وراء محمود شاكر، لانه بالنسبة لها رمز الاستقلال والحرية والامل مهما ادلهمت الظلمات وتكاثرت النكبات واشتدت المحن

المعارك الأدبية .. قيمة حقيقية استنزفتها شتائم الافتراض Article II.

في أواخر القرن التاسع عشر برز مفهوم "المعارك الأدبية"، التي أدت في المحصلة إلى ازدهار الحركة الثقافية، وبروز نجم مجموعة كبيرة من الأدباء والمثقفين، إلا أن تلك المعارك فقدت بريقها مع بداية ظهور الإنترنت، فانتقلت "إلى الفضاء الافتراضي كـ "حتمية تكنولوجية.
ما يميز تلك المعارك أنها كانت ممتعة، يشارك فيها النخبة من المثقفين والشعراء، مع اختلاف المنابر، التي كانت تتفاوت بين مجلة أو كتاب أو صوالين ومجالس ثقافية، إلا أن انتقالها إلى فضاء الإنترنت فتح باب المشاركة للجميع، النخبة والقارئ والمثقف وحتى الجاهل بأدبيات الحوار، فأفقدت المعركة جزءاً من متعتها، وبتنا لا نتذكر متى آخر مرة قرأنا فيها معركة أدبية حقيقية.
فقاعة» أدبية»

تفجر معارك الأدباء والمثقفين قضايا مهمة مثل صراع الفصحى والعامية، أو أفضلية المذاهب والمدارس الأدبية، والثقافتين العربية والغربية، ونقد الأعمال الشعرية والروائية، وحتى المعارك بين جمهور مثقف وآخر، إذ تتهافت عليها التيارات الأدبية، وتنتشر شرارتها بين المثقفين لترجيح كفة على الأخرى، لكن ذلك كله بدأ في التلاشي إلى درجة الاختفاء، لتعود المعارك بشكلها الجديد على منصات التواصل الاجتماعي، على استحياء، دون نكهة، تدار دون أي وازع أخلاقي، حيث تدار بقسوة لتفرد جيلاً متعصباً، ويتم فيها "شخصنة" القضية وتأجيج الاختلاف، وكيْل الشتائم والاتهامات بالسرقة الأدبية أو الهبوط بالمستوى الثقافي، إلا أنها كالفقاعة ما تلبث أن تنطفئ، دون أن تترك أي أثر في الحياة الثقافية.
وليس بخاف أن المعارك الأدبية على منصات وسائل التواصل الاجتماعي هي امتداد طبيعي للمعارك الأدبية المكتوبة أو الشفهية، لكن أكبر ما يعيبها اليوم هو الاختباء خلف الأسماء المستعارة والوهمية، والحصول على حشد وهمي وأصدقاء افتراضيين بأساليب ملتوية، ما يجعل من الصعب استمرار المعركة أو متابعة نتائجها بكل شفافية وعدل وإنصاف.

مزايا إضافية

على الضفة الأخرى، يُحسب للثورة التكنولوجية وعالم الإنترنت أنهما أضافا إلى المعارك الأدبية مزايا إضافية، مثل تسهيل التواصل في أي زمان ومكان، ومشاركة مزيد من الأطراف، وتنشيط الحركة الثقافية، في وقتٍ أضافت إليها فيه بعض العيوب، مثل تجييش آلاف المتابعين الوهميين، وتحويل المعركة الأدبية إلى معركة رقمية شرسة، تتجاوز أدب الحوار إلى اختراق الحسابات وتشويه الآخر.
كانت المعارك الأدبية التي يبدأها طه حسين والرافعي والعقاد وآخرون تنتهي بنتيجة مرضية للجميع، فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، والمعارك تنتهي بود واحترام متبادل لا تشوبه شائبة، في حين تمثل قضية النصر أو الهزيمة فيصلاً في المعارك الأدبية الحديثة، وأصبحت صراعات فكرية لا ترتقي - غالباً - بالثقافة، إنما تزيد الخصمين انقساماً.

الصحافة الخاسر الأكبر

المعارك الأدبية بشكلها التقليدي كانت تشكل ساحة خصبة لازدهار الصحافة الورقية، التي توفر صفحات "دسمة"، تقدم للحياة الثقافية متعاً استثنائية، وتنتقل بالمخيلة الإبداعية إلى آفاق أوسع، وتشكل حركة نقدية حقيقية.
كما كان لتلك المعارك جمهور متابع، يكتب ويهتم، وكان الصخب لا ينتهي، فخلفت كتباً ودراسات توثق معارك خالدة، مثل معركة تلقيب الشاعر أحمد شوقي بـ "أمير للشعراء"، التي دارت رحاها بين طه حسين وعباس محمود العقاد، أو المعركة بين جمهوري كوكب الشرق "أم كلثوم" والعندليب الأسمر، ومعركة عبدالقدوس الأنصاري وحمد

الجاسر، ومعارك أنيس منصور، ومعركة الشاعرين الرصافي والزهاوي على صفحات الصحف العراقية، ومعركة أحمد أمين التي بدأها بسلسلة مقالات "جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي" ليرد عليه الدكتور زكي مبارك بسلسلة مقالات تحت عنوان "جناية أحمد أمين على الأدب العربي"، ودارت رحى هذه المعركة بين مجلتي الرسالة والثقافة، كما تحمل الذاكرة معارك أخرى جميلة اندلعت على ورق الصحف، وكان القلم سلاحها الوحيد، والصحافة وسيلتها الاتصالية.

نهاية المعارك الأدبية

مثقفون كشفوا لـ "الاقتصادية" أن غياب المعارك الأدبية أو ندرتها هذه الأيام يعود في المقام الأول إلى غياب النقاد الكبار، إما لوفاتهم، أو عدم انضمامهم إلى ركب المثقفين على وسائل التواصل الاجتماعي، في حين يرى آخرون أن جهل المثقف الحالي بأبجديات النقد جعل من الصعب نشوء معركة أدبية، في ظل وجود فقر إبداعي وثقافي شديد، وقلة المساحات الثقافية والمنابر الأدبية، وعدم وجود قضايا ثقافية تستحق "القتال" من أجلها.
ومن أسباب غياب تلك المعارك اضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عدد من الدول العربية، إذ بات المثقف يبحث عن لقمة العيش، في حين فقد كثيرون مكانتهم المميزة التي كانوا يحظون بها قبل عقود من الزمن، لعدد من المتغيرات الحياتية، ليصبح الواقع الثقافي جامداً، غير مثمر، يسوده الجفاف التام. وكان للأديب المصري الراحل نجيب محفوظ تفسير مختلف لخفوت نجم المعارك الأدبية، إذ قال حول ذلك "أعتقد أن السبب الأول هو الفجوة الكبيرة بين الأدباء والمفكرين وبين القارئ، لأنه قاعدة المثلث، وإذا اختفت القاعدة لم يكن هناك مثلث، والقارئ بدوره لم يعد يتفاعل مع ما يُكتب، لذلك نجد كثيرا من الكتَّاب يصابون بالإحباط لأنهم كانوا يتوقعون - مثلاً -لفكرة ما أو لكتاب أن يحدث صدى أكثر فلا يحدث".

السجالات الأدبية تاريخ لا يموت/ دراسات إعلامية للشمري

المعارك أو السجالات الأدبية قديمة قدم الأدب نفسه، فالاختلاف في التوجهات والأفكار والآراء ليس بالأمر الجديد، وهو في مجمله إضافة للأدب إن ابتعد عن الهجوم الشخصي، والإساءة للأديب نفسه بغض النظر عن أدبه

المعارك أو السجالات الأدبية قديمة قدم الأدب نفسه، فالاختلاف في التوجهات والأفكار والآراء ليس بالأمر الجديد، وهو في مجمله إضافة للأدب إن ابتعد عن الهجوم الشخصي، والإساءة للأديب نفسه بغض النظر عن أدبه.
منذ بداية العصر الحديث، والساحة الأدبية لا تخلو من هذا النوع من المعارك، وقد ألفت في هذا الشأن مؤلفات حاولت رصد أهم الخلافات الأدبية في مراحل معينة، منها كتاب «المعارك الأدبية في مصر» لمؤلفه أنور الجندي؛ الذي رصد فيه مجموعة من السجالات الأدبية كالتي كانت بين زكي مبارك وخصومه، وبين العقاد وخصومه، وبين المازني وخصومه، وبين هيكل وطه حسين، وغيرها من المعارك.
كذلك كتاب «معارك أدبية» للدكتور محمد مندور، الذي تحدث في جزء منه عن ردود العقاد عليه في عدد من مقالاته، حول ما يسمى بـ»الشعر الجديد» الذي يسميه «الشعر السايب»، ويأسف لأن العقاد، كما يقول، لا يتقبل النقد بصدر رحب، كما تطرق في حديثه إلى عدد من القضايا التي كانت مثار خلاف بين الأدباء والنقاد في تلك الحقبة، ورأيه الشخصي فيها.
مثل هذا، كان حال الأدب في السعودية، إذ لم يخل من الخلافات داخل نطاق الأدب وقضاياه، ولعل أبرز هذه

السجالات المناظرة الشعرية الكبرى التي دارت بين الشاعرين محمد حسن عواد وحمزة شحاته، وقد اتخذ كل منهما اسما مستعارا في هذا الصراع، كتب حمزة شحاته تحت اسم «هول الليل»، ومحمد عواد تحت اسم «أبولون»، وقد كانت صحيفة صوت الحجاز ميدانا لهذا الصراع الشعري، الذي كان في بدايته إضافة للأدب السعودي، لكنه لم يلبث أن تحول إلى عداء شخصي، وهجوم مباشر لم تنشره الصحيفة.

ومن المؤلفات التي رصدت بعض الخلافات أيضا كتاب «دراسات إعلامية في الفلسفة والأدب» للدكتور سليمان الشمري، وقد تحدث فيه عن عدد من المعارك الأخرى، كالتي كانت بين محمد حسن عواد وعبدالقدوس الأنصاري، حول قصة الأخير «مرهم التناسي»، كذلك مقالة نقدية للأديب عزيز ضياء وصف فيها كتاب «الأدب الغني» لمحمد حسن كتبي بأنه «كتاب إنشاء مدرسي لا أكثر ولا أقل.«

ومنها أيضا كتاب «حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية» للدكتور عبدالله الغذامي، الذي رصد فيه أهم الإشكالات والخلافات التي حدثت مع ظهور الحداثة في المملكة وآراء المعارضين والمتفقين معها، تحدث مثلا عن كتاب «الحداثة في ميزان الإسلام» لعوض القرني الذي استخدم له محمد العلي عبارة: «المؤلفون عوض القرني»، في إشارة إلى اشتراك أكثر من شخص فيه، وقد وصفه الغذامي بأنه «كتاب اعتمد على الإشاعات والأقاويل وكلام الصحف، دون الرجوع إلى أي من الكتب والبحوث»، كذلك كان رأي سعد البازعي الذي نشره في مقال في صحيفة الرياض وصف منهجية الغذامي النقدية حينها بـ»الخيانة الوطنية.«

كما تطرق للحديث عن كتاب «جناية الشعر الحر» لمؤلفه أحمد فرح عقيلان، وعن خصومة طويلة دامت بينهما لسنين كما يقول، وعن خصومته مع علي العمير الذي وصفه بـ»الخصم النبيل»، وغير ذلك من الخلافات.

وبالطبع لا يمكن إغفال دور الصحف، والمجلات في نقل مثل هذه الخلافات والمعارك الأدبية.

المعارك الأدبية الساخنة في القرن العشرين

لم تعد المساجلات والمعارك الأدبية شائعة في وقتنا الراهن شيوعها في القرن العشرين المنصرم، وبخاصةٍ في نصفه الأول. فنادرًا ما تثور مثل هذه المساجلات والمعارك بين الأدباء، سواء كانوا كبارًا أو صغارًا. ولكن القرن العشرين شهد معارك أدبية ذات أهمية كبيرة لدرجة القول إنه يتعذّر التأريخ لذاك القرن بدون الإشارة إليها. ذلك أنها تعرّضت لمشاكل وقضايا جوهرية اختلف القوم حولها وكأن لا بد من فتح سجال عام بصددها. لذلك كانت هذه المعارك تجذب الناس إليها وتتابعها وتنقسم حولها نظرًا لأنها تمسّ شيئًا هامًا في حياتهم. ولأن من كانوا يشاركون فيها كانوا من صفوة المفكرين والباحثين والأدباء، فقد كان من الطبيعي أن يتردّد لها صدى واسع لا في البلد الذي دارت فيه وحده، بل في البلدان العربية الأخرى أيضًا. ورغم أن هذه البلدان كانت خاضعة لصنوف مختلفة من الاستعمار، فإن تلك المنابر التي كانت تنشر هذه المعارك، كانت تنجح في الوصول إلى القارئ العربي في كل مكان. فالوحدة الثقافية العربية كانت قائمة بطريقة من الطرق، وكثيرًا ما كانت المعارك الأدبية تثور بين كاتب مصري وآخر شامي أو لبناني أو عراقي أو غير ذلك.

وكانت هذه المعارك من الأدلة على يقظة الأدب والفكر والوجدان عند النُخب، كما كانت وسيلة من وسائل التفتيش عن حلول.

ولم يكن هناك أجدر من أهل الفكر بأن يدلوا بدلوهم في هذا الموضوع.

كان ذلك، في أكثره، زمن ما نسمّيه اليوم بعصر النهضة الذي ساهم في صياغة أفكاره ومشاريعه المثقفون لا السياسيون.

وقد كان من الطبيعي أن يختلف هؤلاء المثقفون في القضايا الأساسية التي كانت تُطرح للنقاش وأن يعبّر كل منهم عن وجهة نظره، وأن تحترم المعارك التي تلامس قضايا جوهرية كقضية اللغة: العربية والعامية، وقضية الكتابة، وهل تتم بالحرف العربي أم بالحرف الأجنبي، وقضية العرب والحضارة الأوروبية. وكثيرًا ما كان صدور كتاب مدخلًا إلى معارك ضارية مثل المعركة التي دارت عقب صدور كتاب «في الأدب الجاهلي» لطه حسين، وكتاب «النثر الفني» لزكي مبارك، وكتاب «في الميزان الجديد» لمحمد مندور، وكتاب «شعراء النصرانية في الجاهلية» للأب لويس شيخو اليسوعي. وظفرت قضايا مثل «العروبة» و«الفرعونية» و«الفينيقية» بحظ كبير في هذه المعارك، ولاعجب في ذلك. فالزمن كان زمن البحث عن الهوية أو الهويات، ولم يكن الانتماء قد اتضح كما اتضح بعد ذلك، وربما كان هذا الاتضاح نتيجة هذه المعارك وبسببها.

ولا شك أنه يعود للباحث المصري أنور الجندي الفضل في عدم اندثار نصوص هذه المعارك، وبالتالي الحؤول دون أن يبسط النسيان نفوذه عليها. فقد قام بجمعها في عدة كتب غير هذا الكتاب الذي نعرض له.

ويمكن القول إنه لا توجد قضية ذات بال مرّت في حياة الفكر العربي المعاصر إلا واحتوتها هذه المجموعة المتكاملة من المساجلات، لتشكل بذلك صورة حية للتحديات والأخطار التي مازال يمرّ بها الفكر العربي المعاصر، ومنها قضايا الأدب المهموس، وأدب المهجر، والأدب المكشوف وقضية المرأة والمجتمع.

وفي هذه المساجلات التي جمعها أنور الجندي صورة عجيبة لعصر زاخر بالاتجاهات والدعوات والأهواء. فحيث تجري أقلام بإعلاء شأن الزنادقة من الشعراء، تحاول هذه الأقلام نفسها أن تنتقص الأعلام الكبار أمثال المتنبي وابن خلدون، وتنكر وجود عبدالله بن سبأ. ويقول الجندي إنه في نفس الوقت الذي كانت هذه الأقلام تنكر وجود النبي إبراهيم، عليه السلام، تحاول أن تدافع عن أرسطو وأفلاطون، وهي حين تزيّف السيرة بالأساطير تتزيّد فيها، نجدها تنكر إن للإسلام أثرًا في المصريين، وتنسبهم إلى اليونان وأوروبا..

على أن ما يعنينا اليوم من أمر هذه المعارك الأدبية هو بسطها بكل موضوعية وحيادية، كما يفعل الباحثون والمؤرخون، وذلك لاستخلاص العِبر والدروس منها. ولا أتردّد في القول إنه بقي الكثير من الأفكار والآراء التي دارت فيها، والتي لا شك أنها قبلت على نحو أفضل بكثير مما يقال اليوم بصددها. أولاً كانت عصارة عقول مكتملة النضج وافية من الثقافة العربية ومن الثقافة الأجنبية في الأعم الأغلب، وثانيًا إن شعور أصحاب هذه العقول بعبء التاريخ والرسالة الملقاة عليهم كان كبيرًا أيضًا. ونتيجة كل ذلك بقي الكثير من الفكر والأدب الذي دار حوله نقاش واسع بين النخبة العربية في ذلك الوقت، والذي لا يزال الكثير عنه قابلاً لأن ينتفع به أو منه في وقتنا الراهن.

وقد وقف في جانب الاتهام والتحدي كثيرون في مقدمتهم شبلي شميّل وسلامة موسى وطه حسين ولويس عوض وفيليب حتي وإسماعيل أدهم وحسين مؤنس وسامي الكيالي ولطفي السيد وتوفيق الحكيم ولويس شيخو وعبدالعزيز فهمي ومحمد أحمد خلف الله وأصحاب «المنجد» وكتّاب دائرة المعارف الإسلامية.

ووقف في جانب الدفاع ودحض الاتهام عمالقة أقلام في مقدمتهم أحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة ومحمد فريد وجدي وحسين الهراوي ومصطفى صادق الرافعي ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب ومحمد أحمد الغمراوي ومحمود شاكر.

كما شارك فيها: أعلام آخرون منهم أحمد الحوفي والخضر حسين والعقاد وعبدالمتعال الصعيدي ومصطفى عبدالرازق ومحمد حسين هيكل.

وتبدو شخصية أحمد زكي باشا شيخ العروبة واضحة في معركتين هامتين الأولى معركة الفراعنة وهل هم عرب أم أتراك، والثانية معركة «ما كان لبنان معلّما لمصر» وفي كلتيهما تبدو قوة عارضته وأسلوبه الساخر في المساجلة.

وقد رأى أحمد زكي باشا حول المسألة الأولى أن الفراعنة مصريون، وإذا أردنا أن نعرف منشأ المصريين وجب علينا الرجوع أولاً إلى أقوال العلماء الباحثين النقّابين ثم الإدلاء برأينا الشخصي الذي تؤيده ملامح الوجوه وأساريرها.

أما حول المسألة الثانية فقد نشأت عن مقال وجهه مجد الدين حفني ناصف إلى الآنسة مي بمناسبة اختيارها رئيسة للمجمع الصحفي فذهب في القول وأسرف وحاول أن ينسب إلى لبنان أوليات كثيرة منها حروف الطباعة العربية ودائرة المعارف العربية وإنشاء الصحف اليومية والمجلات العلمية وترجمة الروايات وأجواق التمثيل وإدخال الرقص والغناء.

يتصدى أحمد زكي باشا لهذا المقال فيكتب مقالاً آخر في «الأهرام» يقول فيه: «إلى الآنسة مي، هل أعجبك ذلك الكلام المرصوص؟ لقد أراد أن يتغنى بمناقبك فأساء إليك وإلى بلادك وقومك باتخاذكم جميعًا وسيلة للإساة إلى التاريخ وتشويه الحقائق، ثم إلى طعن قومه وبلاده بالزور والباطل. نعم للبنانيين أفضال أنا أول من يعرفها ويشهد بها، ولكنها لم يكن لها وجود في أول عهد النهضة المصرية وفي جميع مناحيها. بل بالعكس كانت مصر هي التي ربّت أبناء لبنان فعادوا لها فيما بعد، أي في عصر إسماعيل.

«لقد أساغ لنفسه أن يتوهم أن لبنان هو المعلم الأول لمصر، لماذا؟ لأن رجلاً من رجال الأموال رسا عليه المزاد أيام محمد علي من أجل التزام جمرك الإسكندرية، نعم لأن محمد علي أرسل ثلاثة من أولاد المسابكي، فعادوا وكانوا أول من أنشأ حروف الطباعة العربية في بولاق..

«هذه دعوى ملفقة لا دليل عليها. فليس هناك برهان أو شبه برهان على إرسال أبناء المسابكي لأوروبا. وعلى فرض أنهم سافروا فبمال مصر ومن خير مصر ثم عادوا إلى مصر، فليس لعاقل أن يزعم أنهم أول من أسس المطبعة.. ثم ماذا؟ لأن أحمد فارس الشدياق نقل جريدة الوقائع المصرية من التركية إلى العربية. ذلك لم يحصل، وعلى فرض حصوله فهل يكون هو لهذا السبب المعلم الأول لمصر؟ ثم لماذا؟ لأن المعلم بطرس البستاني قد حظي بنظرة من نظرات اسماعيل، وببدرات من أموال مصر، فشمّر عن ساعد الجد والإقدام لعمل مشروع ضخم وهو (دائرة المعارف). ولكن مات إسماعيل ومات البستاني وابنه وابن ابنه والمشروع لا يزال مبتورًا، وعلى فرض إكماله، فهل يكون البستاني لهذا السبب المعلم الأول لمصر؟.

معركة أخرى حامية الوطيس دارت عقب صدور كتاب سلامة موسى "البلاغة العصرية واللغة العربية" وشارك فيها أحمد الحوفي وعباس محمود العقاد.

نشر سلامة موسى كتابه المذكور عام ١٩٤٥ فأثارت الآراء التي تضمنها في مهاجمة اللغة العربية غيرة الباحثين.

وكان مجمل آراء سلامة موسى:

أولاً: الدعوة إلى الأسلوب التلغرافي ومهاجمة الأسلوب البياني.

ثانيًا: الدعوة إلى إلغاء كلمات الحرب والعرض من اللغة.

ثالثًا: الدعوة إلى إدخال الكلمات الأعجمية دون قيد.

رابعًا: الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية.

وقد تصدّى الدكتور أحمد الحوفي لهذه الآراء جميعًا وفنّدها ومما ورد في مقاله الذي نُشر في مجلة «الرسالة» «ماذا يريد سلامة موسى بالأسلوب التلغرافي؟ إنه يريد أن يكون الأسلوب خاليًا من الروعة والبراعة والجمال والموسيقى، مع أن الأديب، شاعرًا أو كاتبًا، إنما يفتن القلوب ويسحر العقول بألفاظه، وليس اللفظ رمزًا يشير إلى فكرة ومعنى وحسب، بل هو مجموعة من صور ومشاعر أنتجتها التجربة الإنسانية وبثّها اللفظ فزادت خصبًا وحيوية..

ويرد على قول سلامة موسى: «ويجب أن يكون المنطق أساس البلاغة الجديدة وأن تكون مخاطبة العقل غاية المنشئ بدلاً من مخاطبة العواطف» بالقول: «هذه فكرة عاسفة تهدم أساس الشعر والنثر والفنون الجميلة عامة، لأن الفنون وليدة العواطف واستجابة لنوازع نفسية لا صلة للمنطق بها، ولو أنّا أخضعنا كثيرًا من النصوص الأدبية التي تروقنا للمنطق لوجدناها هباءً. بل إننا لو اتخذنا المنطق وحده دعامة للأدب لانقلب إلى حقائق جافة لا خيال فيها ولا جمال ولا سحر، ولكان أحرى به أن يُسمى علمًا لا أدبًا لأن خصيصة الأدب في العالم كله أن معانيه خيالية. وليست معنى هذا أنها بمعزل عن منطق الحياة أو فيها خلط واضطراب، ومازال العالم يكبر ما خلّفه هو ميروس واليونان من تراث».

ويدافع الحوفي عن اتهام سلامة موسى للغة العربية بأنها وليدة مجتمع أرستقراطي حربي ديني: «إنها جرأة ودعوى باطلة، فلم تكن الأمة الإسلامية في العصر العباسي الذي يقصده الكاتب أرستقراطية حربية دينية وحسب، وإلا فبأية لغة ترجم المسلمون تراث اليونان والفرس والهنود والنبط؟ أتتسع اللغة العربية للتعبير عن فلسفة أفلاطون وأرسطو والتعليق عليها وشرحها، ثم تُتَّهم بأنها لغة مجتمع أرستقراطي حربي ديني وحسب - فليست صالحة لنا؟ وبأية لغة ألّف المسلمون في الفلسفة والجغرافيا والفلك والرياضة والمنطق والأخلاق والكيمياء والبلاغة؟.

برأي سلامة موسى كتّاب مصر متخلفون رجعيون لأنهم يعنون بالبحث في الماضي وهذا برأي الحوفي محض افتراء: لقد كتب العقاد عن الماضي ولكن بروح العصر وثقافة العصر والطرق الحديثة في البحث والتحليل. وربما دار بخلدي أن يُلحى العقاد وهيكل وطه والحكيم وغيرهم لأنهم كتبوا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) كتبًا تخضع لطرائق البحث الحديث، ولكنهم جلّوا نواحي من عظمته وأبرزوا طرفًا من سموّ رسالته ولم يجمح بأحدٍ قلمُه فيتقوّل أو يتهجّم. ثم كتب العقاد وهيكل في أبي بكر وعمر وخالد. وكتب العقاد في علي والحسين وعائشة. فلا والله ما وجدوا إلا صحائف من ذهب تنبلج بالعظمة والبطولة والنبالة.

«ولكن هل كتابنا اقتصروا على الماضي وحده كما يزعم؟ هذا الزيات يترجم «آلام فيرتر» لجوتيه، و«رافائيل» للامرتين. وها هو العقاد يؤلف عن شعراء مصر وبيئاتهم والحكم المطلق في القرن العشرين، وله مئات المقالات في شتى الموضوعات.. وهذا هيكل يؤلف في روسو.. فأي منصف بعد ذلك يتجنّى على كتّاب مصر بأنهم يحيون وعيونهم مشدودة إلى الماضي وحده، ومن ذا الذي يجحد فضلهم في مسايرة الثقافة ومواكبة الحياة المتجددة المتطورة؟ ولمَ لا يعاب كتّاب الغرب وهم ما فتئوا يكتبون عن هوميروس وأفلاطون وأرسطو والإسكندر»؟.

وقد دعا سلامة موسى في كتابه إلى إدخال الكلمات الأعجمية في اللغة العربية على حالها، واستدلّ بأن العرب أدخلوا في لغتهم في العصر العباسي كلمات أعجمية. «ولكنه نسي أن العرب استعاروا كلمات من الفرس

واليونان والهند بعد أن صقلوها أولاً صقلاً عربيًا لتلائم منطقهم، وقلما استعملوا الكلمة الأجنبية على حالها. على أنهم عرّبوا حيث افتقروا إلى كلمات تؤدي معاني خاصة ليس في لغتهم ما يؤديها. وإذا كان الأستاذ يستدلّ على جمودنا ومرونة الإنجليز بأن في لغتهم نحو ألف كلمة عربية، فليدلنا على كلمة واحدة ينطقها الإنجليز كما ينطقها العرب. وما من شك في أننا إذا أبحنا لأنفسنا استعمال الكلمات الأعجمية على حالها وبغير ضرورة إلى استعمالها، فقد حفرنا للغتنا وقوميتنا قبرًا بأيدينا، لأنه لن يمضي قرن واحد حتى تصير لغتنا خليطًا مشوَّهًا من عربية مهزومة وعامية مختلفة باختلاف الأصقاع والبيئات، وأعجمية غازية متفشية، ثم بعد قرن واحد تندثر العربية والعامية ونتفرنس أو نتأنجلز ويصيبنا ما أصاب إخواننا العرب في تونس والجزائر والمغرب».

ويفنّد الحوفي آراء سلامة موسى الداعية إلى إحلال اللهجة العامية محل اللغة العربية: «ما دامت اللغة العامية محرّفة عن الفصحى، فلمَ نفضّل الدخيل على الأصيل؟ ولمَ لا تكون الفصحى أحقّ بالاستعمال مادام القرّاء يفهمونها؟ ليست اللغة الفصحى هي المحشوة بالغريب، ولا العويصة التركيب، وإنما هي التعبير الصحيح الجاري على قواعد اللغة وإن كانت مفرداتها في متناول الجميع فلن تنفصل الفصحى إذن عن المجتمع، ولن تصير كلغة الكهّان التي لا تتلى إلا في المعابد، فإن الشعب كله يفهمها، ورقيّ الشعب يقرّبها إليه ويقرّبه منها».

ولعلّ أطرف ما حصل خلال هذه المعركة التي جذبت إليها كثيرين من الكتّاب، كان مداخلة عن عباس محمود العقاد التي قيل إنه ما أن قرأها سلامة موسى حتى لاذ بالفرار في مزرعة له بريف مصر كان يربّي فيها الخنازير، وهو ما أشار إليه العقاد في ردّه الذي ورد فيه:

«عُني الأديب الفاضل الأستاذ الحوفي بالردّ على اللغط الذي يلوكه باسم التجديد ذلك الكاتب الذي يكتب ليحقد، ويحقد ليكتب، ويدين بالمذاهب ليربح منها، ولا يتكلّف لها كلفة في العمل أو في المال. وقد يشتري الأرض ويتّجر بتربية الخنازير، ويسخّر العمّال، ويتكلم عن الاشتراكية وهو يعيش في التقتير عيشة القرون الوسطى في الأحياء العتيقة، ويتكلم عن التجديد والمعيشة العصرية، وهو ينعى على الحياة الآسيوية، وإنه لفي طواياه يذكّرنا بخلائق البدو المغول في البراري الآسيوية».

وذكر الذين أرّخوا لهذه المعركة أن سلامة موسى ابتعد عن القاهرة لعدة أسابيع أمضاها مع خنازيره ولم يعد إليها إلا بعد أن نسي الناس كلمة العقاد عنه..

ونتابع رواية بعض هذه المعارك الأدبية التي استعرت في القرن العشرين وكان لها أثرها في زمانها وفي حركة الأدب العربي في آن، في عدد قادم.

مع الزهاوي في معاركه الادبية

المعارك الأدبية المشهورة التي يعرفها المثقفون العرب هي المعارك التي كانت تدور في الصحف والمجلات المصرية , لأنها هي وحدها التي كانت منتشرة في العالم العربي كله , وكان المثقفون يتتبعونها ويتفاعلون معها باهتمام كبير , ولعل من أهمها,

ومن بواكيرها معركة كتاب (الشعر الجاهلي) لطه حسين , وكانت من أوسع تلك المعارك وأشرسها وأبعدها أثراً

. ثم تجيء معارك جماعة (الديوان) : العقاد والمازني . وتتلاحق المعارك والمعارك التي كان يثيرها قلم الدكتور زكي مبارك هنا وهناك.
أما المعارك التي كانت تدور خارج مصر فقل أن يسمع بها المثقفون العرب في غير البلد الذي كانت تدور فيه . وكانت المعارك كثيراً ما تدور في لبنان, والعراق , وسوريا , وغيرها , ولكنها كانت تدور في أجواء محدودة ضيقة.
لهذا كان سروري كبيراً في أن أتلقى كتاباً عنوانه (الزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية) , للأستاذ عبد الرزاق الهلالي . فأقبلت عليه أكاد ألتهمه التهاماً, وأود لو آتي على صفحاته الأربعمائة والتسعين في لحظة واحدة.
كان الزهاوي أديباً وشاعراً عراقياً شهيراً , وكان حريصاً على أن يعرفه الناس (عالماً وفيلسوفاً وشاعراً) , وكان يسوؤه أن يخرج كاتب أو ناقد عن النظر إليه بغير الثلاثة معاً.
قد جمع عبد الرازق الهلالي معارك الزهاوي الأدبية والفكرية كلها في هذا الكتاب ليقدم للقراء صورة عن المعارك الأدبية في تلك الفترة من عمر النهضة الأدبية في العراق , وهي فترة كان النقد الأدبي فيها يتميز بالعنف , والشراسة , والإهانات المتبادلة , فلا تناقش الفكرة بالفكرة - وهو غاية النقد - بل يتعارك الكاتب والكاتب , ويتشاتم القلم والقلم , وينتفي دور الضمير في هذه المعارك , وكأنها لا تصدر إلا عن أحقاد متوارثة بين الأدباء والكتاب , لا عن خلافات في الرأي فقط.
كذلك كان النقد الذي عرفناه لدى العقاد , والمازني , والرافعي , وزكي مبارك , - في مصر - وكذلك كان النقد الذي نجده على صفحات كتاب عبد الرازق الهلالي : بين الزهاوي والرصافي , ورفائيل بطي , ومحمد بهجت الأثري , وآخرين من العراقيين ، وبين الزهاوي والعقاد ، ونقد الزهاوي لأحمد شوقي.
لقد كان من أمانة الهلالي في عرض هذه المعارك أن جاء بها بكل تفاصيلها ووقائعها وردودها , من أي طرف كانت. وبهذا عرض المتعاركين على الحلبة أمام المتفرجين , بأشداقهم المنتفخة المزبدة , وقبضاتهم المشرعة في وجوه بعضهم البعض , وتركهم يتصارعون بكل ما في الصراع من شراسة وعنف وتجرُّد من تقاليد النقد والنقاش الفكري.
في البداية تأتي مقالات محمود أحمد السيد , ورفائيل بطي , في نقد رباعيات الزهاوي , تليها ردود الزهاوي متتابعة في كيل الصفعات لمنتقديه , وفي تفنيد آرائهم في شعره.
وأقدم للقراء هنا نماذج قليلة جداً مما قيل في هذه المساجلات البعيدة عن روح النقد وروح الأدب:
يقول محمود السيد : "نحن لم نقرأ الرباعيات , ولكن يعلم الراسخون في العلم أن ما نشر منها لم يكن جديراً بهذا الإدعاء الفارغ , ولم يكن فيها شيء جديد من هذا النوع الذي يدعى بالتفلسف - أضف إلى ذلك تفاهتها."..
ثم يروح يتهم الزهاوي بسرقات شعرية كثيرة , لمجرد تشابه أبيات من شعر الزهاوي مع أبيات لشعراء آخرين . وهي طريقة عقيمة في النقد , تدل على الفراغ أكثر مما تدل على فهم النقد . وهي إن كانت صالحة في عصور سابقة , فليست من مفاهيم النقد اليوم.
ويقول رفائيل بطي بعده مدافعاً عن شعر الرصافي , ومهاجماً شعر الزهاوي : " إن الزهاوي لا يصلح لكثير من أنواع الشعر الزهاوي , ولا سيما (شعر الأطفال) , فيجيء نظمه غثاً ثقيلاً وتافهاً لا معنى له. "
ثم يروح بطي يبحث عن (سرقات) شعرية للزهاوي , كما فعل محمود أحمد السيد.
فتجيء ردود الزهاوي عنيفة قاسية. وفي الرد الأول يقول الزهاوي عن رفائيل بطي : " لا أريد في كتابتي هذه إفهام الملأ في بغداد أن الرجل دعي في الأدب , لأن الناس يعرفونه , وإنما لئلا تغرهم جعجعة رحاه فيظنون أن لها طحنا . أريد أن أفهمهم أنه خلو من الأدب , تهجَّمَ على صنعته الجميلة قبل أن يستعد لها. "
يلي ذلك مقال لأحمد حامد الصراف دفاعاً عن الزهاوي , بعنوان (الزهاوي - أنصاره وخصومه. (بعد ذلك يثير الزهاوي نفسه معركة حول (الشعر المرسل) يهاجم فيه القافية في الشعر العربي , ويعتبرها (قيداً ثقيلاً في أرجل الشعر العربي) ويقول : " كم شاعر خسر المعنى لانصرافه إلى القافية , وأخذ يستخرج المعاني منها كأنها الحجر الأساسي لبناء أبياته , فهو لم يتحر القافية للمعنى , بل تحرى المعنى للقافية ". ويقول كذلك :

"والقافية هي سبب فقدان الشعر القصصي عند العرب , وسبب قلة الابتكار , وتفاهة المعاني والموضوعات عند العرب , وباختصار هي آفة الشعر العربي , وعقبة الشاعر العربي الكأداء. "
نشر الزهاوي مقاله هذا في جريدة (السياسة) عام ١٩٢٥ , فأيده شكري الفضلي بمقال عنوانه (الشعر المرسل), كما أيده سلمان الشيخ داود, وعبد الرازق الناصري . ولكن عبد الرازق الهلالي لم يورد مقالي الأخيرين, واكتفي بإيراد مقال شكري الفضلي . وقد هاجمه الشيخ محمد بهجت الأثري هجوماً عنيفاً , دافع فيه عن القافية في الشعر العربي , وهاجم الشعر المرسل , كما هاجم الزهاوي صاحب الدعوة إلى الشعر المرسل , فقال:
"فلا بدع إذا ما ثار بركان غضب (المفحم الألكن) , وصب جام لعانته على العربية وآدابها , وأصدر حكمه الصارم على عجز اللغة , وضيق عطن الآداب , ثم تناسى عجزه وجهله , ليبني حججه على مقدمات هي أفسد من أضغاث الأحلام. " ..
ثم يجيء (رأي الرصافي في الشعر المرسل) , في لقاء صحفي بين رفائيل بطي والرصافي , وهو لا يهاجم الزهاوي , ويبدي في الموضوع رأياً هادئاً.
فيثور الزهاوي ويرد على ناقديه , ويحمل من جديد على القافية , ويدعو إلى تخليص الشعر العربي منها , لينطلق من قيوده العسيرة , وأكد في رده أن " القافية سوف تزول من الشعر, كما زال السجع من النثر. "
وما أظن إلا أن دعوة الزهاوي هذه , التي جاءت في عام ١٩٢٥ إنما كانت تهيئة لمدرسة (الشعر الحر) التي ظهرت في العراق عام ١٩٤٧ , على يد نازك الملائكة , وإن تكن جاءت على غير ما دعا إليه الزهاوي , إلى حد ما.
المعركة التالية كانت معركة بين الصديقين القديمين : الزهاوي والرصافي . والذي أوقع بينهما هو أحمد حامد الصراف , فقد أهدى الزهاوي إلى الرصافي نسخة من رباعياته , فقرأها الرصافي وعلق على حواشيها تعليقا لا ترضي الزهاوي. وزاره الصراف يوماً , واطلع على هذه التعليقات , فطلب استعارتها , فلم يمنعها الرصافي عنه . فأخذها الصراف إلى الزهاوي ليطلعه على تعليقات الرصافي.
فغضب الزهاوي , وراح يهاجم الرصافي , ويطعن في شعره وفي ذوقه , فكانت القطيعة بين الصديقين الشاعرين , وكانت حملات متبادلة بينهما على صفحات الصحف . ومات الزهاوي عام ١٩٣٦ والخصومة ما تزال على أشدها بين الرجلين.
هذا التناقد والمساجلات بين الزهاوي ومواطنيه من أدباء العراق وشعرائه لا أرى فيه كبير غناء , ولذلك سأقفز عنه إلى نقد الزهاوي لشوقي , ثم المعارك الحامية التي دارت بينه وبين العقاد , في صحف مصر , لا في صحف العراق , لأن هذه المعارك خرجت من دورها الإقليمي الضيق , ليقرأها العرب خارج العراق أيضاً . ولكنني قبل ذلك أحب أن أذكر أن أكثر المعارك التي أثارها الزهاوي وأثيرت عليه في العراق , كانت تعتمد على إبراز ما يُتوهم أنه سرقات , وأنه أخطاء لغوية , ولذلك كان مثل هذا النقد يبعث على الملل , ويدل على عقم فكري وسوء فهم للنقد الأدبي.
والمؤسف أن الزهاوي نقل هذه الطريقة العقيمة نفسها إلى مصر في معركته مع العقاد , واضطر العقاد - المصارع الفكري - إلى أن يرد بمثلها , إلى جانب ردوده العنيفة القاسية.
يقول عبد الرزق الهلالي في الصفحة ٢١٨ من الكتاب:
"لم يكن الزهاوي يعترف بشاعرية غيره , فكيف إذا كان هذا الشاعر قد أصبح (أميراً للشعراء) ... إن الزهاوي قد أغضبه هذا التنصيب , فهو أحق به من أحمد شوقي , كما يعتقد . أعرب الزهاوي عن رأيه هذا مراراً , إلا أنه تنازل شيئاً ما , فقبل أن يكون شوقي (أميراً لشعراء مصر) ... وقد سر الزهاوي كثيراً عندما بدأت (جماعة الديوان) تهاجم شعر أحمد شوقي وتحط من شاعريته ... وأخذ يتحين الفرص لنقد شعر شوقي.. "
وتجيئه الفرصة حين نشرت إحدى صحف بغداد مرثية شوقي لإسماعيل صبري , فراح الزهاوي ينتقد هذه القصيدة نقداً جارحاً.

يقول الهلالي إن هذا الأمر " أثار ضده عدداً من الكتاب الذين يخالفونه الرأي وفي طليعتهم الأستاذ محمد بهجت الأثري , فقد كتب خمس عشرة حلقة ... بينما رد الهاشمي على الأثري بتسع حلقات. "
ويصدر ديوان شوقي (الشوقيات) فيتناول الزهاوي بالنقد ثلاث قصائد منه , تماماً كما كان يفعل العقاد في اختيار بعض القصائد الهزيلات من شعر شوقي , ويروح يوسعها ويوسع شوقي تهكما وسخرية . غير أن الزهاوي يتناولها من الجانب اللغوي - وليته كان ضليعاً في اللغة ! - والغريب أن هذه المقالات نشرها الزهاوي - دون توقيع - في مجلة (لغة العرب) التي كان يصدرها في بغداد العلامة الأب أنستاس الكرملي . ولذلك ظل المعروف أن المتطوع لنقد القصائد الشوقية هو الكرملي نفسه , صاحب المجلة , وليس سواه.
وطبعاً لم يتنازل شوقي إلى الاكتراث بنقد الزهاوي , كما لم يتنازل قط من قبل إلى الاكتراث بنقد العقاد.
وأخيراً تقع الواقعة بين الزهاوي والعقاد . وهي واقعة حقاً , لأن العقاد لم يكن من نوع الناقدين العراقيين , بل كان يتميز بأعنف العنف , وأشرس الشراسة , فيوسع خصمه تمزيقاً ونهشاً , بالسخرية حيناً , وبالإهانة حيناً.
دأت المعركة برأي قاله العقاد في الزهاوي رداً على سائل تونسي كتب إلى العقاد يسأله عن رأيه في الزهاوي .
وهذا الرأي جاء في ختام مقال العقاد , وهو : " أن خير مكان للزهاوي هو بين رجال العلوم ورادة القضايا المنطقية , فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعراء مثل ذلك المكان. "
نشر العقاد مقاله هذا في جريدة (البلاغ) المصرية عام ١٩٢٧ واطلع عليه الزهاوي , فلم يعجبه هذا الرأي الذي يجرده من الشعر والفلسفة , ويضعه بين العلماء فقط , فرد عليه في جريدة (السياسة الأسبوعية) القاهرية.
لم يكن الزهاوي عنيفاً في رده , فهو يعرف مع من وقع . ولكنه راح يناقش مقال العقاد كله , متذرعا بأن العقل هو أساس كل تقدم وكل حضارة . ورد عليه العقاد في (البلاغ) يفند آراءه , ويؤكد أن الخيال والعاطفة - قبل العقل - هما اللذان صنعا كل الحضارات . وكان العقاد قوياً قي نقاشه , وفي رد الرأي العلمي بالرأي المنطقي.
الغريب في رد الزهاوي أنه لا يؤمن بغير العقل والمنطق , ويريد من الشعر أن يعتمد على العقل والمنطق .
ولست أدري كيف يمكن أن يكون الشعر شعراً إن كان عقلاً كله ومنطقاً , ولم يعتمد على العاطفة والخيال . وأرى أن الزهاوي بهذا يجرد نفسه من الشاعرية وهو لا يدري.
وكعادة العقاد , لم يرحم الزهاوي من السخرية , والتهكم في رده عليه.
وهنا انحرف الزهاوي عن النقاش في العقل والخيال والعاطفة , وأخذ ديواناً للعقاد صدر حديثاً إذ ذاك , وراح ينتقده في مجلة (لغة العرب) في مقالات متلاحقة , دون توقيع أيضاً , كما فعل في نقده لشوقي.
وليس من عادة العقاد أن يسكت على نقد , وما كان يمكن أن يخرج هذه المرة على القاعدة التي اختطها لنفسه .
وفي هذه المرة لم يعرف من كان صاحب النقد في (لغة العرب) وظنه الكرملي نفسه , فراح يهاجمه بكل عنف وقسوة , ويسخر من معرفته اللغوية , وهو لا يعرف أن الكرملي لا ذنب له في ما يرميه به من سخرية ونقد لاذع , وأنه من أسرة عربية عريقة تنتمي إلى بني مراد.
وعلى الرغم من أن المعركة طالت بين الزهاوي والعقاد , فإن الزهاوي لم يكشف عن اسمه , وصمت الكرملي عن البوح , وظل يتلقى الأذى من العقاد صابراً.
ومرت الأيام , ومات الزهاوي , ثم مات الكرملي , ثم مات العقاد , ولم يكتشف أن الذي كان ينتقد شعره في (لغة العرب) هو الزهاوي بأن يفصح عن نفسه , ويدفع الأذى عن رجل بريء أهين دون جريرة.
والذي كشف هذه الحقيقة - بعد فوات الأوان بكثير - هو عبد الرزاق الهلالي في كتابه هذا , ولم يكتف بالشهادة فحسب , بل نشر صوراً من مقالات الزهاوي بخطه . وقد مات الكرملي مظلوماً ولم يشأ أن يدفع عن نفسه التهمة , ومات العقاد ظالماً ولا يعرف أنه ظالم , ومات الزهاوي قبلهما , ولم يجعل الظالم يشعر بظلمه , ولا دفع التهمة عن المظلوم.
وأورد فيما يلي نموذجاً صغيراً من نقد العقاد للكرملي , وهو يحسبه المهاجم الذي يستحق العقاب:
"وفي ردنا على نقد هذه المجلة - أي لغة العرب - لديواننا فائدة قيمة , غير فائدة التصحيح وإظهار الأخطاء التي وقع فيها الناقد المغرور , وهي الكشف عن حقيقة الشهرة التي تُنال أحياناً في بلادنا الشرقية , فقد تُذاع

عن بعض سمعة العلم بالعربية وهم يجهلون من أولياتها وأصولها ما يفترض علمه في صغار الشداة المبتدئين ! وترى هؤلاء المشهورين يبيحون لأنفسهم مقام الإفتاء والتحليل والتحريم في ألسنة العرب ، وهم لا يفقهون منها جائزا ولا ممنوعا ولا يقيمون فهم عبارات منها قلما تخفى على سواد الناس ! وفي طليعة هؤلاء صاحب مجلة (لغة العرب). فالكشف عن حقيقة هذه الشهرة الزائفة باب من أبواب العبرة خليق أن يقصد لذاته , ويتخذ مثالا لغيره من ضروب السمعة التي لا تقوم على أساس ! " العقاد يقول هذا عن الكرملي , في حين كان الكرملي من أبرز أعضاء المجمعين اللغويين في القاهرة ودمشق , ومن أكبر علماء اللغة العربية وأصولها وقواعد صرفها ونحوها , وما يجوز فيها وما لا يجوز.
ومع ذلك تحمل الكرملي الأذى إلى آخر مداه , ولم يقل شيئاً , لأن الزهاوي لم يشأ أن يقول الحقيقة , ولم يسعفه قلمه بشيء يدفع به التهمة عن المتهم.
هذه كانت نماذج من صنوف النقد الأدبي في ذلك الحين , فهل تغير النقاد اليوم ؟ وهل أصبح النقد أكثر عفة وترفعاً عن الولوغ في المهاترات بدل مقارعة الفكرة بالفكرة والحجة بالحجة, والرأي بالرأي ؟

لماذا صمتت المعارك الأدبية؟

يظل السؤال الأكثر إلحاحاً لماذا صمتت المعارك الأدبية في يومنا هذا صمت القبور على الرغم من اتساع منابر النشر التقليدية والحديثة؟ الأديب العربي الكبير الراحل نجيب محفوظ يقدِّم تفسيراً لذلك بالقول: أعتقد أن السبب الأول هو الفجوة الكبيرة بين الأدباء والمفكرين وبين القارئ لأنه قاعدة المثلث. وإذا اختفت القاعدة لم يكن هناك مثلث. والقارئ لم يعد يتفاعل مع ما يكتب، لذلك نجد الكثير من الكتَّاب يصابون بالإحباط لأنهم كانوا يتوقعون -مثلاً- لفكرة ما أو لكتاب أن يحدث صدى أكثر فلا يحدث...

الزهاوي شاعر تحرير المرأة

حين رحل الشاعر الزهاوي ذات يوم من عام ١٩٣٦ وقف الشاعر معروف الرصافي على قبره وهو يبكيه ويقول:

أيها الفيلسوف عشت مضنى
مثل ميت وصرت بالموت حياً
سوف يبقى بين الورى لك ذكرٌ
ناطقاً بالبقــاء لم يخش شيَّاً.

إن جميل صدقي الزهاوي الذي قال عنه طه حسين بأنه معري العصر بقي في الذاكرة العراقية غصناً أخضر وعلامة مميزة للتمرد على العادات البالية وداعية للتحرر والتجديد, وما زال مقهى الزهاوي يذكرنا يومياً بالمعارك

الأدبية والمجالس الحافلة بالسجالات والنقاشات لهذا العراقي الكردي القادم من السليمانية إلى بغداد ليشكل مع الرصافي ثنائياً شعرياً أسس لشعرية عراقية مميزة منذ بدايات الدولة العراقية.
تميزت علاقة الشاعرين الرصافي والزهاوي بالتوتر والشد والجذب فاتفقا حيناً واختلفا أحياناً كثيرة, لكن كلاهما كان على ضفة الحرية ومع آمال الشعب العراقي وكانا رمزين أساسيين في المشهد الثقافي العراقي في ذلك الحين, إلى حد أن عميد الأدب العربي وبعد وفاة أحمد شوقي كتب في صحيفة "البلاغ" مقالاً جاء فيه (إن إمارة الشعر قد انتقلت من وادي النيل إلى وادي الرافدين.(
خاض الزهاوي معارك أدبية من أجل تحرير المرأة والخروج من شرنقة العادات المتهرئة ودعا إلى التعلم والانفلات من الماضي ،فكان بذلك شبيهاً بالشاعر الراحل محمد جواد الغبان. وكان ذلك مبعث معاناة كثيرة سببت له متاعب وفقدان وظيفة وهذا ما دعاه إلى الرحيل إلى مصر حيناً والعودة مجدداً إلى بغداد.
إن هذا الشاعر ودوره ومكانته ومواقفه الجريئة بحاجة إلى المزيد من التنقيب والبحث والتقييم للتعريف به ،وشعره المكتوب باللغة الكردية والعربية يستحق اهتماماً أوسع, لذلك أقدمت وزارة الثقافة على طبع مجلدين في نحو (٩٠٠) صفحة يضمان كل ما كتب عن الزهاوي في الصحف العربية والكتب الصادرة عنه منذ أربعينات القرن الماضي ولغاية الآن, وذلك بالتعاون مع (مركز الزهاوي) للثقافة والتراث .وفي يوم ٢٠١٣/١١/٢ أقيمت ندوة حول دور ومكانة هذا الشاعر الكبير حاضر فيها الباحث (عبدالحميد الرشودي) الذي شرح بالتفصيل سيرة حياة ومواقف الزهاوي وأثره في المشهد الثقافي والاجتماعي العراقي ومعاركه وسجالاته.
وخلال الكلمة التي ألقيناها في الندوة أكدنا على الطابع التحرري الجريء لهذا الشاعر، فقد أثار الزهاوي مواضيع حرية المرأة منذ عشرينات القرن الماضي واتخذ مواقف سياسية واجتماعية متقدمة جداً.

في كتابه عن «الزهاوي» يقول د. ماهر حسن فهمي: «إن جميل صدقي الزهاوي لم يكد يفيق من صراعه المزمع مع الرصافي، حتى وجد نفسه في صراع آخر مع عملاق رهيب، مع العقاد، وكأنما قدر له ألّا يعرف الراحة أبداً، وتلك ضريبة الشهرة، يدفعها كل موهوب من أعصابه، لكن خطورة هذا الصراع الجديد أنه مع العقاد، ولن يكون محصوراً في العراق كصراعه مع الرصافي، فهو في مصر، التي يعتز بجمهوره فيها، فكم حدّثه تلاميذه العائدون من مصر، بإعجاب شداة الأدب هناك بشعره.«
كان العقاد قد كتب في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٢٧ في العدد ٤٣ من جريدة «البلاغ» مقالاً عن الزهاوي، فيه إجابة عن سؤال لأحد الأدباء، أخرج من خلاله الزهاوي من زمرة الفلاسفة والشعراء»، عندما قال: «الشاعر صاحب خيال وعاطفة، والفيلسوف صاحب بديهة وبصيرة وحساب مع المجهول، والعالم صاحب منطق وتحليل وحساب مع هذه الأشياء التي يحس بها ويدركها» ثم نفى العقاد عن الزهاوي الخيال والعاطفة والبديهة؛ لأنه «يريد أن يعيش أبداً في دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار، ولا تنطبق فيها الأجفان، ولا تناجي فيها الأحلام، وليست دنيا الحقيقة كلها نهاراً وشمساً، لكنها كذلك ليل وغياهب لا تجدي فيها الكهرباء، وقد خُلق الخيال والبداهة للإنسان قبل أن يخلق العقل، ثم جاء العقل ليتممهما، ويأخذ منهما، لا ليلغيهما ويصمّ دونهما أذنيه.«
أما الزهاوي فهو يحاول أن يلغي الخيال، فلا يكون شاعراً، ويلغي البداهة فلا يكون

فيلسوفاً، ويظن أن الإنسان لا يتصل بالكون إلا بعقله، حتى حين يسعى إلى الحقيقة على جناح العقل، تخونه طريقه؛ لأنه يسعى بجناح آخر هو الشعور، ثم دلل على ذلك بنظرية الدور التي نشرها الزهاوي في كتابه «المجمل مما أرى.«

قرأ الزهاوي مقال العقاد، فأرسل إلى جريدة «السياسة الأسبوعية» مقالاً تحت عنوان: «رد على نقد الأستاذ العقاد للفيلسوف الشاعر جميل صدقي الزهاوي» وقال فيه: «قرأت قبل أربعة أيام كلمة الأستاذ العقاد عني، وأنا يومئذ مريض ولا أرتاب في أن ما كتبه، كتبه بدافع الحب للحقيقة، يريد إظهارها للقراء، ولما كنت ولعاً بالحقيقة أكثر من الأستاذ الذي يرجّح للوصول إليها العاطفة على العقل والخيال على المنطق، قرأت ذلك النقد على ما فيه من إجحاف، شاكراً له عنايته بي إلى درجة أن يكلف نفسه كتابة مقال طويل عريض عني، وما كنت آمل في يوم من الأيام أن يحشرني الأستاذ في زمرة الفلاسفة أو الشعراء، ليؤسفني إخراجه إياي منهما، وقد دخل فيهما كثير من الناعقين، ذلك لمخالفة مبدئي المادي، مبدأه الروحي، ولا يخفى ما بينهما من البون الشاسع، فلم أستغرب رأيه فيّ.«
ثم راح يناقش آراء العقاد، فالشاعر العصري صاحب حقيقة وخيال وعاطفة، لا يبعد بها عن الواقع المحسوس، والفيلسوف صاحب بصيرة يتحرّى بها الحقيقة وحسب ولا شأن للبديهة فيه، فالعقاد روحي يتشبث بأذيال الخيال، وهو مادي لا يرى غير الحواس أبواباً للمعرفة، مستثنياً معرفة ذاته، ولا يأذن للخيال أو العاطفة بأن يلجا باب الشعر، إلا إذا اطمأن إلى أنهما لا يفسدان وجه الحقيقة التي يتغنى بها.
يحاول الزهاوي أن يسخر من الخيال، مع إحساسه بالرضا عن نفسه، فقد هاجم العقاد، ولم يكتفِ بالدفاع عن نفسه، لكن العقاد يرد في العدد ٤٩ من «البلاغ» الأسبوعي قائلاً: «يدهشني من الزهاوي أنه يتكلم عن العاطفة، كما يتكلم عنها المغنّون وأولاد البلد حين يتشاكون بجرح العواطف» وهو ما يدفع الزهاوي للرد بعنف في أول مقاله، ثم يهدأ ويلين في آخره: «دهشتي ليست أقلّ من دهشة الأستاذ لأخطائه، فهم ما أقصده على ما فيه من ألمعية، فتعالَ أيها الأستاذ نتصالح، على أن تقول أنت بالعقل والبديهة والخيال في الحيوان كما في الإنسان، وأنزل أنا لك على فيلسوفيتي فتكون أنت قد أنصفت الفلسفة، وأكون أنا قد استرحت من عبئها الثقيل، وتكون قد أرضيتني وأكون قد أرضيتك، أما شاعريتي فلا أنزل عنها بسهولة؛ لأنني مارستها ومارستني أكثر من نصف عصر، فيعز عليّ أن أفارقها في آخر أيامي، بل تترك الحكم فيها لجمهور الأدباء

"ان الزهاوي دعا الفيلسوف الالماني اينشتاين الى المبارزة، وان قواعد هذه المبارزة دفع وجذب ورباعيات ولا نخال اينشتاين يتهور فيقدم على هذه المبارزة، لان تلاوة رباعية واحدة كافية اصرعه في حلبة البرازا."

مجلة الناشئة الجديدة
انا بلبل انشودتي اغرودتي
اشدو بها ويراعتي مناقاري
لو لم اكن ذا لحية وسدارة لحسبتني طيرا من الاطيار
جمع الاديب الحر صبحي شملنا
في داره اكرم بها من دار
الزهاوي

حفلت الفترة التي مرت على العراق ما بين الحربين العالميتين بافانين من المعارك السياسية والادبية كانت منابر البرلمان، والمجالس الخاصة وصفحات الجرائد مسارحها ضاقت ام رحبت.
ولقد كانت الخصومة بين الرصافي والزهاوي من المظاهر المميزة للمعارك الادبية في تلك الفترة لان هذه الخصومة صبغت بالوانها بواكير الحركة الجديدة في الشعر والنر حيث انقسم ادباء الشباب انذاك الى فريقين يناصر كل منهما واحداً من ذينك الشاعرين الخالدين.
والحقيقة ان تلك الخصومة لم تكن ناشئة، كما يظن القارئ لأول وهلة، عن اختلاف في العقيدة السياسية التي كان كل من الرصافي والزهاوي يعتنقها، ولا هي منبعثة عن تباين وجهات النظر لديهما عن مستقبل العراق او الامة العربية جمعاء، وانما كان الشعر وحده مبعث تلك الخصومة، والدافع الرئيس اليها إذ كان كل منهما يرى نفسه احق من الاخر في تقلد زعامة الشعر في العراق وربما الى ابعد من العراق ايضا.
والشيء الذي لا يجادل احد فيه تقريبا هو ان الزهاوي – رحمه الله – كان السباق في اظهار خصومته للرصافي، وان مبعثها كان توهمه، منذ الايام الاولى التي حاول النظم فيها، بانه اعظم شعراء زمانه، وان شعراء العروبة في عهده لا يداونونه في افكاره وتعابيره ويتخلفون عنه في جرأته وعبقريته.!
وهذا الزهو الذي اشتهر به الزهاوي، واعجابه الشديد بشعره على ما يعتور بعضه من ضعف وركة وتفاهة، كانا مصدر قلق شديد له طوال حياته، إذ ولدا في نفسه الغيرة من اي شاعر مجيد تنشر الصحف والمجلات اشعاره، ويثني عليه المعجبون به.
وقد يخيل للكثيرين ممن واكبوا الحركة الادبية في هذه البلاد ان الخصومة بين الرصافي والزهاوي لم تنشا إلا بعد قيام الحكم الوطني في العراق في اعقاب الحرب العالمية الاولى، وان ما لقبه الزهاوي من رعاية الحكم القائم سواء في عهدي الاحتلال والانتداب كانت من اسباب تلك الخصومة، ولكن الحقيقة هي ان الخصومة بين الشاعرين تمتد الى ما قبل الحرب العالمية الاولى بسنوات عديدة.
وقد ظهرت هذه الخصومة لأول مرة – وهي مظهر من الغيرة التي ابتلى بها الزهاوي، عندما نشر الرصافي قصيدته الشهيرة "اليتيم في العيد" في مجلة "المقتبس" التي كان يصدرها انذاك في مصر المؤرخ المعروف المرحوم محمد كردعلي فقد نشرت المجلة تلك القصيدة في مكان بارز فيها تحت عنوان "اكبر الشعر.
وما ان اطلع الزهاوي على ذلك العدد من المقتبس حتى اغتاظ من الرصافي فانقطع عنه ولم يعد يكلمه. وزاد من غيظ الزهاوي ان كردعلي كتب، بعد نشر القصيدة في مجلته بمدة قصيرة، مقالا افتتاحيا في صحيفة "المؤيد" التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف بالقاهرة تحدث فيه عن الرصافي واورد اسم الزهاوي من بعده، وحين قرا الزهاوي ذلك اخذ يجادل الرصافي في الشعر والادب واللغة ثم انقطع عن مكالمته مدة تقارب ستة اشهر.
على ان هذه الجفوة بين الشاعرين ما لبثت ان انتهت حين ذهب الرصافي الى الاستانة بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م حيث اتصل هناك الزهاوي وسكن معه في دار واحدة عدة شهور.
وحين عاد الرصافي الى العراق سنة ١٩٢١ واسندت اليه وظيفة نائب رئيس لجنة الترجمة والتأليف في وزارة

المعارف كان الزهاوي قد تقلد عدة وظائف بعيد احتلال بغداد مباشرة وما كاد الرصافي يستقر في بغداد ويبدأ يتحف الصحف والمجلات في العراق وخارجه يغرر من قصائده حتى دبت عقارب الغيرة في صدر الزهاوي من جديد فاخذ يظهر له العداء الشديد، فتبدأ فترة جديدة من الخصومة بينهما استطالت زهاء عشرة اعوام.
ثم انفجرت هذه الخصومة سنة ١٩٢٣ يفعل انصار الشاعرين وبسبب "ألشعر القصصي " على وجه التخصيص:
فقد نشر المرحوم روفائيل بطي، وكان يعد من انصار الزهاوي انذاك مقالة في مجلة "الناشئة الجديدة" التي كان ينشرها الكاتب الناقد المرحوم ابراهيم صالح شكر، يمتدح بها الرصافي ويعتبره اول من نظم الشعر القصصي .
فما كان من الزهاوي إلا ان هاج وماج ودفع باحد تلامذته للرد على مقالة روفائيل بطي بمقال مسهب في الناشئة الجديدة ذاتها، وفي هذا المقال قال كاتبه ان الزهاوي لم يكن هو السباق الى نظم الشعر القصصي في العراق وحده حسب وانما كان قد سبق الشعراء العرب كلهم الى ذلك اللون من الشعر، على ان التعليق الذي اوردته الناشئة الجديدة على هذا المقال هو الذي زاد من حدة هذه الخصومة . فقد ذكرت المجلة ان هذا المقال هو من قلم الزهاوي نفسه ثم اضافت متهكمة تقول: "ان الزهاوي دعا الفيلسوف الالماني اينشتاين الى المبارزة.. وان قواعد هذه المبارزة دفع وجذب ورباعيات.. ولا نخال اينشتاين بتهور فيقدم على هذه المبارزة لان تلاوة رباعية واحدة كافية لصرعه في حلبة البراز" وقالت المجلة ايضا في ذات التعليق: "ان لجنة الطب الادبي قررت تلقيح الجرائد والمجلات بلقاح يقيها جرائم الرباعيات.. وان جامعة اكسفورد قررت ترجمة قصيدة الزهاوي الفلكية ليستظهرها الاساتذة المختصون" والذي نستطيع ان نؤكده ان روفائيل بطي نفسه هو الذي كتب هذا التعليق الساخر. وفي الوقت ذاته انبرى القاص العراقي الكبير المرحوم محمود احمد السيد فاخذ يهاجم رباعيات الزهاوي ويردها الى الاصول التي سرقها الزهاوي منها وهي اراء ورد بعضها في القرآن الكريم وبعضها الاخر قال به كثيرون من الفلاسفة والحكماء والشعراء العرب وغيرهم.
وكذلك ادلى الاستاذ محمد بهجت الاثري بدلوه في هذه المعركة فهاجم الزهاوي هجوما عنيفا حين وضع على منضدة التشريح قصيدة الزهاوي في رثاء الشاعر المصري الكبير المرحوم اسماعيل صبري وذلك في مقالات نشرها في صحيفة "العاصمة" التي كان يصدرها انذاك الاستاذ حسن غصيبة العزاوي. كما تناول تلك القصيدة كاتب آخر اوغل فيها تجريحا وتسخيفا في مقالات نشرتها له جريدة "العراق" لصاحبها المرحوم رزوق غنام.
اما الزهاوي فقد وقف الى جانبه في هذه المعركة ابن اخيه الشاعر المرحوم ابراهيم ادهم الزهاوي الذي شرع يرد على مقالات روفائيل بطي ومحمود احمد السيد ومحمد بهجت الاثري كما وقفت السيدة بولينا حسون صاحبة مجلة "ليلى" النسائية في بغداد الى جانب الزهاوي ايضا باعتباره من انصار حرية المرأة في العراق. كما شاركت في المعركة صحيفة "الامل" اليومية السياسية التي اصدرها الرصافي نفسه في تلك الايام والتي صدر عددها الاول في اول شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٣ ونستطيع ان نؤكد هنا ان هذه المعركة كانت من الاسباب الرئيسة التي حملت الزهاوي على الهجرة من العراق الى مصر في ذلك الوقت، في ربيع سنة ١٩٢٤.
هدأت العاصفة ضد الزهاوي بعد سفره الى ارض الكنانة وخفت الخصومة بينه وبين الرصافي حتى اننا نجده يجعل الرصافي على رأس "الاساتذة الكرام" الذين طلب في رسالة بعث بها الى تلميذه احمد حامد الصراف ان يبلغهم سلامه.
لكن المعركة ما لبثت ان تجددت بعد عودته الى العراق إذ لم تطل اقامته في مصر اكثر من اربعة اشهر ونصف الشهر، بل ان اوار هذه المعركة قد اشتد حتى قبل ان يعود الزهاوي الى بغداد، وكان الكاتب المصري الساخر المرحوم ابراهيم عبد القادر المازني هو الذي ايقظ الفتنة النائمة حين بعث الى احد اصدقائه في العراق، واظنه المرحوم رفائيل بطي، برسالة مؤرخة في السادس والعشرين من تموز ١٩٢٤، يهاجم فيها شعر الزهاوي ويقول عنه "انه يصدمني ويريبني.. وان ما قرأت له من الشعر الذي نظمه في مصر لا يخرج عن الحقائق التافهة مثل: العصافير تطير، والانسان يمشي على قدميه والاحياء تموت."
ولم يشأ الزهاوي بعد ان عاد الى بغداد ان يسكت ويعمل بسكوته هذا على اطفاء النار التي اشعلها ضده الاستاذ

المازني برسالته تلك، وإنما على النقيض من ذلك طلع الزهاوي على الوسط الادبي بلون جديد من الشعر المنثور قال عنه انه "الشعر المرسل" وهو ضرب من النثر لا تتوفر فيه وحدة القافية ولا وحدة الموضوع المعروفة عن الشعر وانما يقتصر على وحدة الوزن حسب. فقد راح الزهاوي يكتب في صحيفة "السياسة" اليومية التي كان يصدرها المرحوم يوسف غنيمة في ذلك الوقت مقالات عديدة يدافع بها عن هذا النوع من الشعر وإذ ذاك انبرى عدد من الكتاب الى الخوض في هذا الموضوع بعضهم يؤيد الزهاوي فيه والبعض الاخر يهاجمه ويسقه اراءه، وكان روفائيل بطي ممن هاجموا الزهاوي وشعره المرسل في جريدة السياسة اول الامر ثم في مجلته "الحرية" الشهرية. ولم يكتف بطي بذلك بل اجرى حديثا مع الرصافي حول هذه الفرية التي جاء بها الزهاوي في الشعر فكان رد الرصافي على السؤال المتعلق بالشعر المرسل قوله "وجل ما يتجلى لي من هذا الشعر الذي يسميه صاحبه بالمرسل إنما هو اقتران الرعونة بالشعور، وخلط السخافة بالظرافة، وادغام التفاهة بالنباهة، وطلب السمعة من وراء البدعة."

ولم يكتف بطي بحديث الرصافي هذا وحده بل نشر في ذات العدد من "الحرية" خبرا عن اختيار الزهاوي عضوا في مجلس الاعيان كان تمجيدا للرصافي وليس للزهاوي إذ قال فيه ما نصه: "لقد اختارت حكومة العراق حضرة الاستاذ جميل صدقي الزهاوي ليكون عضوا في مجلس الاعيان العراقي وبذلك قدرت لرجال العلم والادب فضلهم، ونتوقع منها ان تسند احد الكراسي الثلاثة الشاغرة في ذلك المجلس الى حضرة الاستاذ معروف الرصافي لانه من رافعي اعلان العراق، ولا ريب ان كثيرين عرفوا العراق، وعظموا العراق، واحبوا العراق لولعهم بشعر الرصافي السائر مسير الشمس."

وقد ثارت ثائرة الزهاوي لدى قراءته ذلك العدد من الحرية فراح يهاجم الرصافي هجوما مقذعا ويتهمه بانه يجهل العلوم العصرية. وكان رد الرصافي على ذلك قوله "انا والزهاوي قد تخرجنا من مدرسة واحدة، وهي المدارس العلمية الدينية التي كانت موجودة في بغداد ولم يكن غيرها وقتئذ . فاذا كان هو قد تعلم العلوم العصرية من المجلات كالمقتطف وغيرها فانا ايضا اطالع هذه المجلات فما الفرق بيني وبينه؟.

وحين تمادى الزهاوي في ذلك هاجمه الرصافي بقصيدة مقذعة كان مطلعها

قل للزهاوي اني كنت لاقيه
مقالة كان منها بادي الحذر

ومنها:

قصرت علامة الدنيا وواحدها
وصرت في كل علم جد مقتدر
وتلك معجزة في طي مخزية
لم يعطها قط إلا انت من بشر
فان انيت بدعوى العلم فارغة
فما اتيت بشيء غير منتظر

ويبدو لنا ان احتدام المعركة بين الرجلين هذه المرة هو الذي دفع الزهاوي الى اصدار وريقته الاسبوعية التي سماها "الاصابة" والتي كان غرضه من اصدارها رد سهام منتقديه وشفاء نفسه ما اثاروه فيها من غيظ والم وهياج وقد صدر العدد الاول من الاصابة في يوم الجمعة العاشر من ايلول ١٩٢٦.

وكان الزهاوي يكتب اكثرية موضوعاتها ويهاجم فيها مهاجميه وفي مقدمتهم رفائيل بطي الذي ظل يواصل انتقاداته الحارة للزهاوي في صحف "العراق" و"السياسة" و"الاستقلال" وغيرها.

والحقيقة ان "الاصابة" لم تنشر في الوسط الصحفي قط لانها كانت تحرر في بيت الزهاوي وتوزع معظم اعدادها من قبله مجانا على تلامذته واصدقائه ولذلك فهي لم تعش اكثر من خمسة وثلاثين يوما صدرت فيها ست مرات ليس غير.

ولقد شغلت هذه الخصومة بين الزهاوي والرصافي تلامذة المدارس الثانوية على قلة عددهم في ذلك الوقت

ايضا. فقد حدث في ربيع سنة ١٩٢٧ ان اقام طلاب المدرسة الثانوية ببغداد (الاعدادية المركزية الان) حفلا ادبيا دعوا اليه مختلف رجال التربية والفكر والقلم وقد دعي الرصافي والزهاوي الى ذلك الحفل بعد ان انبيء كل منهما ان الدعوة موجهة له وحده وعندما افتتح الحفل وجد الشاعران نفسيهما يجلسان الواحد بجانب الاخر مباشرة حيث ادار احدهما ظهرها للاخر، وحين جاء دور الزهاوي للتحدث في ذلك الحفل وجدها فرصة ذهبية ليباهي بشعره وليغيظ الرصافي بذلك، فانشد قصيدة مطولة حتى اذا وصل فيها الى بيت القصيد فيها راح يشير بيده الى الرصافي ويقول:

وللشعر في بغداد روح جديدة
وللشعر اعباء انوه بها وحدي

وحينئذ نهض الرصافي وغادر الحفل غاضبا.

ومع ذلك لم يكف الزهاوي عن ملاحاة الرصافي ومهاجاته في مقالات نشرتها له جريدة "الفيحاء" الدمشقية في تلك الايام.

***

ازاء هذا التعنت من الشاعرين سعى بعض الاصدقاء الى الصلح بينهما وكان للاستاذ محمود صبحي الدفتري على رأس القائمين بهذه المأثرة الطيبة اذ وجه الى كل من الشاعرين رسالة يدعوه فيها الى وليمة يقيمها في داره لاعلان الصلح بينهما. وقد اجاب الرصافي على رسالة الدفتري بالموافقة على رسالة بعث بها اليه في اليوم الاول من شهر كانون الاول سنة ١٩٢٨. واشترط فيها "ان يكون اجتماعنا في داركم العامرة على الوجه الاعتيادي وان لا يكون من الاستاذ الزهاوي ولامني عتاب ولا خطاب."

واقام الدفتري الوليمة المنشودة في داره التي تحولت الى حفل ادبي عامر وفيها نصائح الشاعران وتعانقا ثم قام الزهاوي منشداً.

انا بلبل انشودتي اغرودتي
اشدو بها وبراعتي منقاري
لو لم اكن ذا لحية وسدارة
لحسبتني طيرا من الاطيار
جمع الاديب الحر صبحي شلمنا
في داره اكرم بها من دار

وبرغم هذه "الهدنة" ظل تلامذة الرصافي والزهاوي يتنابزون بالالقاب ويثيرون غبار المعارك فحينما اصدر الاستاذ لطفي بكر صدقي مجلته "ألوميض" في اواخر سنة ١٩٣٠ لم ينفك هو والاستاذ عبد الوهاب الامين عن مهاجمة الزهاوي في عدة كلمات نشرتها تلك المجلة.

وظلت "الجبهة" هادئة بين الشاعرين الى ان حركها الدكتور طه حسين بعد وفاة احمد شوقي في مقالة كتبها بصحيفة "البلاغ" المصرية الشهيرة ، يقول فيها ان امارة الشعر قد انتقلت من وادي النيل الى وادي الرافدين حيث انشطر شعراء العراق وادباؤه وقتئذ الى شطرين يؤيد احدهما الرصافي ويؤيد الاخر الزهاوي في التربع على امارة الشعر مما اثار الكثير من المساجلات والمماحكات في هذا الشأن.

وقد زادت صحيفة (أبو حمد) الهزلية التي كان يصدرها المرحوم عبد القادر المميز نار الفتنة اشتعالا حين نشرت في احد اعدادها كلمة زعمت فيها ان وفدا من ادباء العراق ذهب الى الفلوجة – التي كان الرصافي قد استقر فيها منذ امد غير قصير – ليبايع الرصافي على امارة الشعر. وعندئذ بلغ الغيظ بالزهاوي منتهاه فاوعز الى انصاره بان يكثروا من نشر القصائد والمقالات التي يبايعونه فيها بامارة الشعر.

ولم تهدأ الثائرة بين الرصافي والزهاوي إذ ظل انصارهما يحركونها ويغذونها باستمرار. فقد حدث ان زارت المغنية المصرية المعروفة "نادرة" العراق في صيف ١٩٣٤ واقامت عدة حفلات غنائية في ملهى "الهلال" الذي لا يزال يحمل ذات الاسم حتى الان في "الميدان". وفي احدى هذه الحفلات قفز الزهاوي الى المسرح

وامسك بالمغنية نادرة وقبلها محاولا اثارة الرصافي الذي كان يجلس في الصف الاول من المتفرجين وبعد يومين طلعت مجلة "عطارد" الادبية الاسبوعية بمقال كله نقد جارح للزهاوي وكان عنوان المقال "امن اجل قبلة ام من اجل الشهرة هذا الاسفاف يا شيخ الشعراء."!!

وبعد ان حمى وطيس المعركة بين الشاعرين بعد نشر ذلك المقال خف وخمد واعقبت ذلك فترة هدوء بينهما امتدت حتى وفاة الزهاوي ليلة الثالث والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٣٦ حيث وقف الرصافي على قبره ويبكيه بكاء مرا ويقول مرتجلا:

ايها الفيلسوف قد عشت مضنى
مثل ميت وصرت بالموت حيا
سوف يبقى بين الورى لك ذكر
ناطق بالبقاء لم يخش شيا
انت فرد في الفضل حيا وميتا
حزت في الخافقين ذكرا عليا
سوف ابكي عليك شجوا واني
كنت ابكيك في الحياة شجيا